وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة يحي فارس المدية
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية و الأدب العربي

الموضوع :

غربة الكتابة في أعمال آسيا جبار
بوابة الذكريات أنموذجا

مذكرة لنيل شهادة الماستر
تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

إعداد الطالبين :
فتحي قريشي.
كنزة عرايبية .

إشراف الأستاذ:
علي برادي.

السنة الجامعية: 2020/2019


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء:

إلى من حملتني في ظلمات ثلاث، وأهدتني نور الحياة وعلمتني هجاء الكلمات، وذرفت في أفراحي وأحزاني العبرات، إلى أغلى هبة ربانية " أمـــــي العزيـــزة".

إلى من أكلله بالهيبة والوقار، إلى من علمني العطاء بدون انتظار،

إلى من أحمل اسمه بكل افتخار "والدي العزيـــــز".

إلى أفراد عائلتي وأقاربي.

إلى من تذوقت معهن أجمل اللحظات صديقاتي:

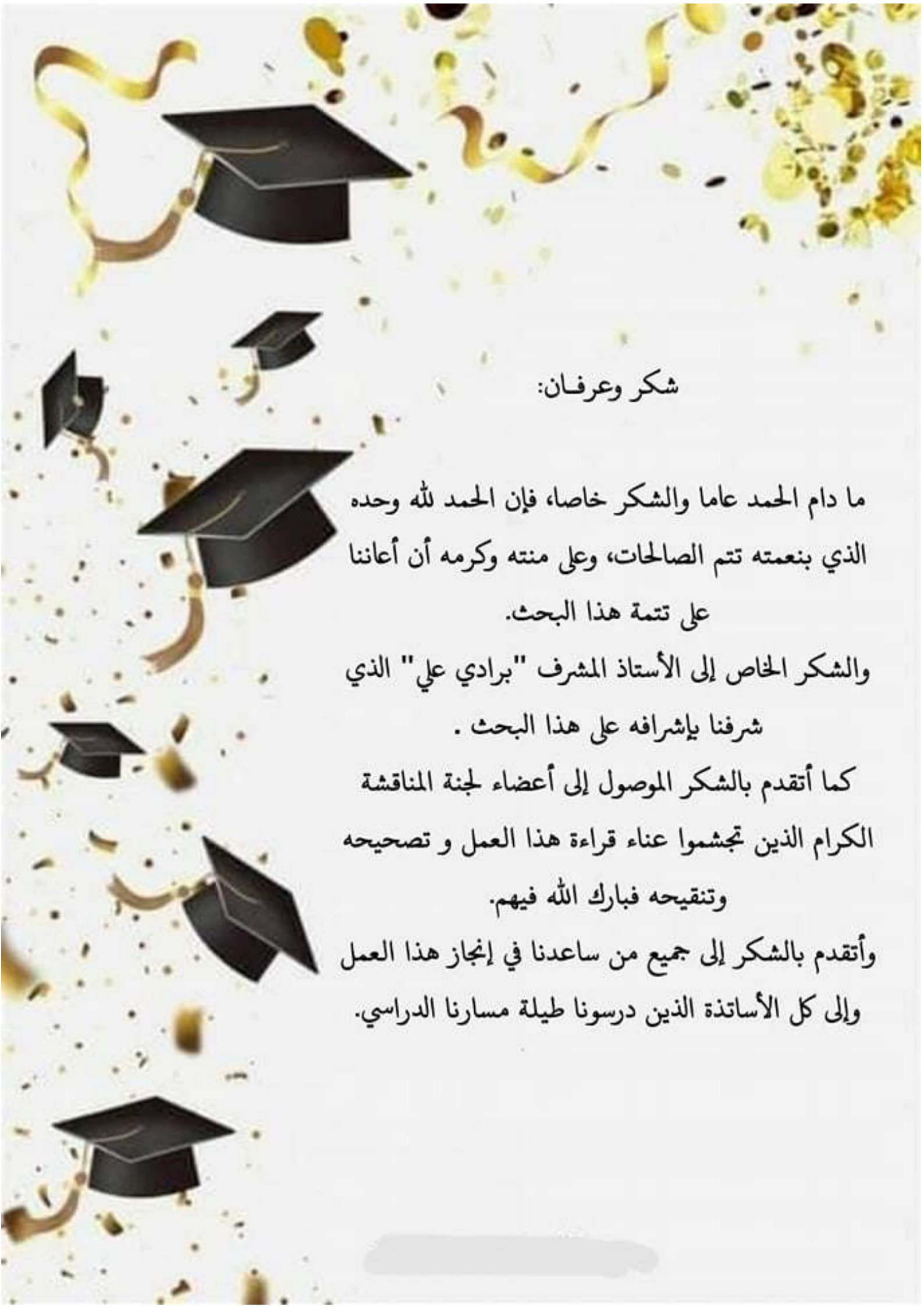
سليمة صديقة روحي ، جهيدة ، نسرين ، أمينة ، حبيبة

وخاصة إلى صديقتي الغالية سناء أدامك الله في حياتي.

إلى كل من عرفني في الجامعة وزرعوا فيّ الابتسامة.

كنـــــزة





شكر وعرفـان:

ما دام الحمد عاما والشكر خاصا، فإن الحمد لله وحده الذي بنعمته تتم الصالحات، وعلى منته وكرمه أن أعاننا على تتمة هذا البحث.

والشكر الخاص إلى الأستاذ المشرف "برادي علي" الذي شرفنا بإشرافه على هذا البحث .

كما أتقدم بالشكر الموصول إلى أعضاء لجنة المناقشة الكرام الذين تجشموا عناء قراءة هذا العمل و تصحيحه وتنقيحه فبارك الله فيهم.

وأتقدم بالشكر إلى جميع من ساعدنا في إنجاز هذا العمل وإلى كل الأساتذة الذين درسونا طيلة مسارنا الدراسي.

المقدمة

بسم الله الرحمان الرحيم، الحمدلله الذي يقول الحق ويهدي السبيل وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين الذي بلّغ الأمانة ونصح الأمة، وعلى آله وصحبه نصرة الحق وحملة الدين.

يعد الأدب أحد أشكال التعابير الإنسانية عن عواطف الإنسان وأفكاره وخواطره بأساليب كتابية راقية ومتنوعة ما بين النثر والشعر الموزون.

وتعد الرواية من الألوان النثرية المناسبة لاحتواء حركة المجتمع والتعبير عن الواقع الإنساني وروح الأمة وطموحها وآلامها فلا يستطيع أن يعبر عنها بأسلوب آخر، فقد لاقت الأعمال الروائية اهتماما كبيرا من قبل المثقفين وذلك لما حققته من نجاح كبير على الساحة الأدبية.

وبما أن المرأة جزء لا يتجزأ من المجتمع فقد خاضت فيه بالتعبير عن قضاياه ومسائله والتعبير عن مكانتها، ومع مرور الزمن استطاعت أن تبرز صوتها في مختلف الميادين شأنها شأن الرجال معبرة عن مختلف المشاعر والأحاسيس والانفعالات والرؤى.

فالمرأة مبدعة في كل المجالات وتعد مربية أجيال وحكيمة ومقاتلة وإنجازاتها لا تزال متواصلة إلى اليوم. فالإبداع الأنثوي ظاهرة أدبية وفنية جذبت إليها اهتمام القراء والنقاد، وهكذا كان ولوج المرأة لعالم الكتابة من أوسع أبوابه، وسطع نجم العديد من الروائيات الجزائريات، وكان سبب اختيارنا لهذا الموضوع هو الميول الشخصي لهذا الجنس الأدبي الذي خاضت فيه المرأة وشاركت فيه وكذلك تشجيع الأساتذة لنا بحديثهم المشوق عن الرواية الجزائرية، ومنها انبثقت الإشكالية الخاصة بالبحث والذي فرضتها فكرة الموضوع، ألا وهو : **فيم تكمن مظاهر غربة الكتابة عند "آسيا جبّار" في رواية "بوابة الذكريات" ؟**

وقد قسمنا بحثنا إلى مدخل وفصلين وقد عنونّا المدخل: الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية،وأتبعناه بفصلين:

الأول: الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية بين الهوية والتطورتناولنا في المبحث الأول الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية وإشكالية الهوية.

أما في المبحث الثاني فقد تناولنا فيه الكتابة بالفرنسية وأشهر الأعلام.

والمبحث الثالث نظرة في أهم الأعمال المكتوبة بالفرنسية.

أما الفصل الثاني وهو الفصل التطبيقي فخصصناه لتحليل الرواية تحت عنوان " غربة الكتابة في رواية بوابة الذكريات " وفيه قمنا بتلخيص الرواية كما أننا قسمناه إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: غربة اللغة

المبحث الثاني: غربة الانتماء، أما المبحث الثالث غربة الوجود

وأخيرا أنهينا بحثنا بخاتمة تشمل أهم النتائج وملحقا يشمل على حياة الكاتبة وأهم أعمالها، وقد اعتمدنا على المنهج التحليلي الوصفي.

واستندنا في إنجاز هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع المتنوعة منها أحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وأم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، غربة الكاتب العربي لحليم بركات دون أن أنسى رواية بوابة الذكريات والتي كانت النموذج المطبق عليه.

ولقد لاقينا في بحثنا هذا الكثير من الصعوبات والعقبات أهمها: جائحة كورونا التي تمر بها بلادنا مما تسبب في غلق الجامعات والمكتبات وصعوبة التواصل مع المشرف وزميلي في البحث، إضافة إلى قلة المصادر والمراجع كذلك قلة الدراسات حول أدب آسيا جبار وإن وجدت فكانت على نموذجا واحدا من رواياتها.

وفي الأخير أحمد الله سبحانه وتعالى الذي وفقنا لإتمام هذا البحث وأن تكون هذه الدراسة حلقة من حلقات البحث في موضوع الأدب الجزائري وهذا كله بفضل الله.

المدخل

إن الأدب ظاهرة واقعية كائنة في الواقع الملموس، فالآثار الأدبية تعرض في الواجهات وتطبع في المطابع وتوزعها مؤسسات النشر، وقد يهتم القارئ المتتبع لحركة الكتب بالغلاف والعنوان، وإذا ما أعجبه الكتاب واشتراه، فقد يقرأه كاملا أو يكتفي بركنه على رفوف مكتبته، وهذا يعني أن الآثار الأدبية لها حياة في الواقع الاجتماعي.

تحدث دارسو الأدب مطولا عن الصلة بين الأدب والمجتمع، لكن آرائهم ونظرياتهم التي طرحت لم توضح شكل هذه الصلة ومضمونها بطريقة صريحة، وكانت تفتقد إلى الحجج القوية المتماسكة وإلى المنهج العلمي الذي ينسق الطروحات المختلفة. ومع مرور الوقت توسعت هذه الأفكار والنظريات وتشعبت مدارسها كما طبق بعضها على المنتوجات الفنية والأدبية خاصة، فمثلا عارض "تودوروفTodorov" القول بأن "الأدب يكتب من الحياة والنقد من الكتب مؤكدا أن الأدب يكتب أيضا من الكتب وكذا النقد يكتب أيضا من الحياة "[1].

لا يمكننا تصور الإنسان خارج القوقعة الاجتماعية، وبالتالي خارج الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي يقحم في وسطها العميق، وفي ظل ذلك فالأديب سواء كان قصاصا أو روائيا أو شاعرا فإنه لا يتحرر من قبضة المجتمع لأنه يمتلك موقعا اجتماعيا كما أنه على الدوام يتلقى إشارات تشجيعية تعترف بإبداعاته من جمهور يهمه هو بدوره يبعث بخطابات إليه، وبالتالي يتنوع الجمهور بين الحقيقي وبين الافتراضي.

والأكيد أن الأدب - فيما تراه الماركسية - جزء من البنية الفوقية للمجتمع وجزء من أديولوجيا المجتمع أو عنصر من تلك البنية المعقدة من الإدراك الاجتماعي ، التي تبرر الموقف الذي تسيطر فيه طبقة اجتماعية على غيرها. ولذلك فإن فهم

[1] تزيفتان تودوروف، نقد النقد، تر: سامي سويدان، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، 1986، ص 151.

الأدب يعني فهم العملية الاجتماعية التي تشمله، لا ينظر غولدمان إلى الأعمال الفنية من حيث هي خلق فردي خالص، بل من حيث هي خلق يتجاوز الفرد وينتج عما يسميه"البنية العقلية المتجاوزة للفرد"أي الأبنية العقلية لمجموعة اجتماعية[1].

إن العمل الأدبي تعبير عن وجهة نظر إلى العالم، وهو الوسيط الرابط لمشاعر وأحاسيس الأديب التي تغربل عالم الكائنات في صلاتها المستمرة بعالم الاشياء المحسوسة، ويبقى المبدع ذلك الكائن الذي امتلك دون غيره الأداة المناسبة لتشكيل العالم وتفسيره[2]. وقد تكتشف أثناء هذه الدراسة العميقة لبعض المواهب الاستثنائية في الأدب عامة والرواية خاصة، تحديدا بعد استعراض الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ومدى تأثير المجتمع الفرنسي على أدباء الجزائر.

لقد كان للاستعمار الفرنسي على الجزائر الذي امتد من عام 1830 الى 1962 تأثير كبير في مختلف ميادين الحياة، وخاصة على الحياة الأدبية حيث كان الاحتلال احتلالا شاملا من جميع النواحي حيث قاموا بكل أنواع السيطرة والنهب وإذلال الشعب بالإضافة إلى الفقر والجوع اللذين طبعا واقع الشعب الجزائري وهكذا كان الأدب الجزائري والرواية على وجه الخصوص رهينة الواقع هذا الذي سيطر عليه الاستعمار [3]لما يقربمن قرن ونصف القرن وصبغه بكل ألوان الظلم والبأس ... وهكذا كان أيضا الروائيون الجزائريون شهودا على أوضاع مجتمعهم متفاعلين مع مايجري حولهم. وانطلاقا مع هذا الواقع، فقد ارتبط الأدب الجزائري بالاستعمار بدءا من كتابات الإصلاحيين بريادة جمعية العلماء المسلمين وعلى رأسهم عبد الحميد بن باديس والبشير الابراهيمي والعربي التبسي وغيرهم

[1] تيري إيجلتون، الماركسية والأدب، تر: جابر عصفور، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء المغرب، 1986، ص 38

[2] غولدمانلوسيان، تاريخ الأدب والفلسفة، تر: نادر زكرياء، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1 ،1981، ص 12

وصولا إلى الذين واصلوا المعركة الأدبية بعدهم. ومنه فقد ولد الأدب الجزائري حاملا بذور الثورة والحرية مدافعا عن القيم الإنسانية في مفهومها العام وولدت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية في ظروف خاصة ساهمت في صبغ الأدب الجزائري بروافد أدبية أخرى.

أسباب الظهور: لم تكن ولادة الرواية الجزائرية عموما من فراغ بل كان ذلك عبر مسار طويل قطعته منذ العشرينيات فقد ظهرت عدة أعمال عامي 1917 و1920، ثم كان الانتشار بين سنتي 1920 و1930 لروائيين أمثال عبد القادر حاج حمود وشكري خوجة. وأرخ للرواية المكتوبة بالفرنسية بسنة 1920، برواية أحمد بن مصطفى القومي للكاتب أحمد بن شريف، وقد عالجت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية موضوعات عديدة أهمها تتعلق بالجانب السياسي والثقافي. وهكذا وجد الجزائريون أنفسهم في مواجهة لغة الجانب الأقوى (المستعمر) فكانت سبيلهم لمحادثة هذا الطرف في ظل الظروف التي فرضها هذا المستعمر على اللغة العربية بصفتها لغة الجزائر الأم ولا أدل على ذلك من قول ابن باديس وهو الصنهاجي الأصل :

شعب الجزائر مسلم و إلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

ولأن اللغة تعتبر جزءا هاما من هوية الأمة فقد استعملت فرنسا كل الأساليب للقضاء على العربية[1]. ولعل هذه الظروف التي كان يعيشها الشعب الجزائري من جوع وبؤس وجهل هي ماجعلته يخوض معركة شاملة، ومنه فالمتصفح لتاريخ كفاح الشعب الجزائري يدرك أن مواجهته للمحتلين الفرنسيين كانت شاملة في جميع

[1] محمد بن سمينة ، في الأدب الجزائري الحديث، النهضة الأدبية الحديثة، مؤثراتها، بدايتها، مراحلها، مطبعة الكاهنة الجزائر 2003، ص 8-9

الجبهات المقاومة المسلحة، المواجهة الفكرية والجهاد السياسي[1].فهذه المعركة الشاملة مكنت الشعب الجزائري من مواجهة الغزو الفرنسي وقد انعكس كل هذا على الأدب الجزائري.

وبحكم هذا عاش الجزائريون جنبا إلى جنب مع الفرنسيين ولكن كخطين متوازيين على حد تعبير الأديب عبد الحميد بن هدوقة، وبحكم هذا التزايد في التعايش والزحف للفرنسيين كمستوطنين ولدت مجموعة من الأدباء الفرنسيين الذين عاشوا بالجزائر أمثال ألبير كامو، وإيزابيل ابرهاردت وجون بومبي وغيرهم، وقد ولّد هذا الصراع بين الثقافتين المحلية والاستعمارية اتجاهيين رئيسيين :

أ-اتجاه محافظ: يرفض التجديد والإقبال على الثقافة الفرنسية حتى لا يكون ذلك انتصارا للمستعمر.

ب- اتجاه مجدد: مثلته مجموعة من الكتاب أقبلت على الثقافة الاستعمارية وعلى رأسها الأدب، وتبعا لهذه الظروف فقد ظهرت مدرسة "شمال افريقيا"المعبرة باللغة الفرنسية ولقد ضمنت هذه المدرسة فئتين من الكتاب، أما الفئة الأولى فكانت من الكتاب من أصل فرنسي ولدوا وعاشوا بالجزائر ومنهم ايزابيل ابرهاردت ، غابرييل أوديسيو، جبل روا، ادموند[2]. أما الفئة الثانية فكانت من الكتاب من أصل جزائري والذين تمكنوا من أن يفرضوا أنفسهم في مجال الأدب بعد أن اتخذوا اللغة الفرنسية وسيلة للتعبير، وذلك بعد كل الجهود التي استعملها الاستعمار في تفكيك الوحدة الوطنية للشعب الجزائري.

[1] محمد بن سمينة ، في الأدب الجزائري الحديث، مرجع سابق ص 14

[2] بعلى حنفاوي، أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية،د ط، دار العرب للنشر، د سنة، ص 90-91

وعليه فإن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية وليد عوامل كثيرة من أبرزها الاحتلال الفرنسي الذي لم يتأخر في تطبيق سياسته ومخططاته من أجل التخلص من اللغة العربية باعتبارها تعبرعن الشخصية الوطنية والدينية باعتبارها لغة القرآن، وكان هدف المستعمر الفرنسي استعمال التعليم الفرنسي كوسيلة أساسية لتحقيق أهداف فرنسا الشنيعة فبدأت عام 1883بفتح المدارس لتعليم أبناء الجزائر اللغة الفرنسية بهدف إدماجهم في المحيط الفرنسي وتجريدهم من الشخصية العربية والإسلامية[1]. فهذه المدارس كانت تعلمهم تعليما فرنسيا محضا: يمجد الحضارة الفرنسية ويمقت كل ما هو عربي، لهذا كان القضاء على اللغة العربية باحتلال الفرنسية مكانها من أهم أهداف الاستعمار الفرنسي وتمهيدا لفكرة سياسية استكمل بها استعمار البلاد والتي تتمثل في دمجه في الحضارة الفرنسية.

ومن جهة أخرى نجد أن المستعمر فرض نظامه وسياسته لإبادة الإنسان الجزائري بشتى أنواع الحرمان وذلك بفرض ثقافة غير ثقافته، وبذلك فرضت الفرنسية على الشعب الجزائري فرضا باكتساحها جميع الميادين إذ تقول كريستان عاشور:" لقد قام الاستعمار الفرنسي بغية تخليد وجوده بوضع سياسة ثقافية تدريجية تعتمد أساسا على ترسيخ اللغة، لغة النظام، ففرضت الفرنسية كلغة تعبير لأي شخص أراد الإدلاء برأيه، لقد استعمل الجزائريون هذا الحق أولا في شكل كتابات ثم بعد ذلك في شكل روايات وأشعار"[2]إن هذه البوادر الأدبية في مفهومها الكلاسيكي تشكل قطعة أساسية في نشأة أدب ملتزم أعطى منذ نشأته صبغة سياسية واجتماعية حاضرة في كتابات لا تزال موجودة لحد الآن.

كل هذا كان خطة استعمارية في محاربة اللغة العربية، أما عن تحطيم الشخصية الجزائرية فقد عملوا على إبقاء النظام القبلي، وتنمية روح العنصرية

[1] حكيمة سبيعي، هوية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 35/34، جامعة محمد خيضر بسكرة، مارس 2014، ص 518.

[2] المرجع نفسه ص519

لتمزق شمل الوحدة الوطنية والقومية للشعب الجزائري كما عمد المستعمر إلى تعيين أئمة المساجد بحيث لا يختار إلا من يرضي الاستعمار، وبذلك قد يكون قد حقق غايته في تحطيم قيم الشخصية الثقافية والحضارية الجزائرية العربية الإسلامية وكسر كل الروابط التي تربط النشء بماضيه عن طريق نشر الجهل بين الشعب ومن بين المدارس التي ظهرت في الجزائر هناك مدارس فرنسية الأصل جزائرية المنبت بها وبطبيعتها نشأ عنها ما يلي[1]:

أ- جيل شباب البحر المتوسط : ولدت الحرب العالمية الثانية في الجزائر حياة أدبية أكثر ثراء وأكثر انفتاحا وتنوعا وبداية الاتصال بالثقافات الأخرى، وقد ساعد ذلك في ظهور المدرسة الجزائرية ففي بداية القرن كان الفرنسيون يعملون على أن تنطق شمال إفريقيا باللاتينية وتحمس لهذه الفكرة أدباء فرنسيون مثل : لوي برتران وروبير راندل، ثم جاءت فكرة صناعة إفريقيا على المنوال المتوسطي وظهر جيل من الأدباء في تلك السنوات عرفوا تحت اسم"شباب البحر المتوسط"وكان أغلبهم من الفرنسيين[2].

أما الجيل الثاني فيتحدد اتجاههم بتاريخ 1920 بزعامة روبير راندر الذي كان يرفض تماما فكرة دمج المسلمين مع غيرهم من الطوائف الأخرى التي تشكل المجتمع الاستيطاني ورفع شعار الحرية الأدبية بالجزائر"إن هدف المدرسة جزأرة الجزائر"وخلق نخبة ثقافية تمثل الأجناس الذين يعيشون بالجزائر والذين يحققون وحدتهم بها، أولئك الذين أصبحوا مستوطنين في الجزائر. وقد قام هؤلاء الكتاب بإنشاء مايشبه مدرسة أدبية سميت بمدرسة المتجزئرين قد ضمت هذه المدرسة إلى جانبهم عددا من الكتاب الجزائريين، ولم يتقبلوا منهم إلا من اضطر إلى

[1] حكيمة صبيعي، هوية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية،المرجع السابق، ص 520.

[2] محمود قاسم، الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، دط، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1996، ص 104.

الإعلان عن اندماجيته نذكر منهم عبد القادر حاج حمو، أما موضوعاتهم فهي قائمة على مطالبهم بالاستقلال الأدبي والسياسي للجزائر[1]. وتكريسا لهذا الاتجاه الاستيطاني في الأدب انشأ الكتاب المستوطنون هياكل تنظيمية تسنده فأسسوا سنة 1921 جمعية أدبية أطلقوا عليها اسم "جمعية الكتاب الجزائريين" ومجلة تنطق باسم الجمعية سموها "افريقيا" وانشؤوا"جائزة أدبية"أطلق عليها فيما بعد اسم "الجائزة الكبرى"ظلت تمنح سنويا إلى سنة 1954 باستثناء بعض سنوات الحرب العالمية الثانية، وقد وجدت فئة من هؤلاء الكتاب تتعاطف مع الأهالي حاولت التقرب منهم، وتتعلم لغتهم ومن أبرزهم"ألبيرتو فيموس"و" ستيفان راوول"و" لوي لوكوك"وأطلقوا عليهم اسم"محبي الأهالي"أو"الأهاليون"وفي الوقت نفسه ظلت فئة من حركات كتاب "الجزأرة"تتمسك بالأطروحات الاستعمارية السابقة عن الحرب العالمية الأولى التي وضع أسسها وعمل على نشرها لويس وميزات[2]. كل هذا فيما يخص أدب المستوطنين أو جيل شباب البحر المتوسط أو مدرسة الجزأرة كما سموا أنفسهم.

مدرسة الجزائر العاصمة: عمل الاستعمار الفرنسي على القضاء على اللغة العربية وأحل محلها اللغة الفرنسية من أجل دمج الشعب الجزائري في الأكثرية الفرنسية وربط مقدراته بفرنسا مباشرة، فكما أثرت فرنسا على الجزائر فكريا وثقافيا كذلك تأثر الفرنسيون بالجزائر، فقام بعضهم بمساندة الثورة قولا وفعلا مثل : فرانس فانون، جان سيناك، فأسسوا مايسمى"بمدرسة الجزائر"التي مثلها ألبير كامو.

تميزت مدرسة الجزائر من الناحية الأدبية عن سابقتها بتحول مركز الاهتمام لدى كتابها والابتعاد عن وصف العادات والتقاليد وحياة القرى والأرياف والمدن

[1] أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ص 142

[2] المرجع السابق ص 138-140-141

الداخلية إلى التركيز على موضوع البحر والشمس والحياة في المدن الساحلية وكان ألبير كامو بكتاباته الوصفية الأولى بفضل النماذج الأدبية الرائعة التي قدمها في هذه الأعمال :"أعراس"1938،"الغريب"1942،"الطاعون"،1947 وكان له دور كبير في إرساء أسس هذه المدرسة[1] وعليه تجدر الإشارة إلى أن دعوة"مدرسة الجزائر"إلى ايجاد أدب متوسطي يستمد خصائصه من الطبيعة الجزائرية قد طغى على كامو وأدبه بصورة واضحة، لدرجة اعتبره بعض الدارسين أديبا جزائريا لا يختلف عن الأدباء الجزائريين الملتزمين بالتغيير في واقع وطنهم ولا يختلف عنهم في تناول الموضوع والأسلوب[2]. وخلاصة القول إن الثقافة الجزائرية كانت متعددة المشارب تتطلع إلى الثقافة الفرنسية وغيرها من الثقافات العالمية قبل الاستعمار الفرنسي قد خلق أوضاعا استثنائية وظروف سياسية فرضت على الجزائريين ثقافة جديدة، هذا إلى جانب الانفتاح على ثروات الأدب الفرنسي المتطور والاتصالات الفنية المتبادلة مع الأدب الفرنسي التي كانت تقيم معه علاقات خصبة متبادلة عن طريق التأثير والتأثر.

[1] أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 144

[2] المرجع نفسه،ص 151

المبحث الأول: الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية النشأة والتطور

يرجع المؤرخ والباحث "جان ديجو"أول نص أدبي كتبه جزائري باللغة الفرنسية إلى سنة 1891[1].

وهو عبارة عن قصة بعنوان"انتقام الشيخ"مستقاة- حسب ما يذكر ديجو- من التقاليد الاجتماعية الجزائرية، كتبها محمد بن رحال وهو أحد المثقفين الوهرانيين المعروفين الذين اشتهروا بنضالهم الطويل من أجل الحفاظ على الهوية الجزائرية وتعليم اللغة العربية لأبناء الجزائريين[2].

إلا أن الباحث نفسه - جان ديجو- يذكر أن عملية المسح الشامل التي قام بها للجرائد والمجلات التي كان يصدرها الفرنسيون في الجزائر، في الفترة مابين 1880 و1920 بحثا عن نصوص أخرى لجزائريين آخرين، لم تسفر إلا على نتائج هزيلة بحيث لم يعثر إلا على نصوص قليلة موقعة بأسماء ذات"رنين"عربي- حسب تعبيره - مثل"الجزائري"و" الراوي"و"الفرياني"وهو يشك كثيرا في حقيقة أصحابها، بل ويرجح أنها أسماء مستعارة لمستوطنين فرنسيين، ويستثني اثنين منهم أحدهما يدعى:"أحمد بوري"الذي نشر سنة 1912 في جريدة"الحق"رواية مسلسلة بعنوان"مسلمون ومسيحيون"ويعلق على الرواية بأنها كتبت بماء الورد كناية على القفر المتعمد للمؤلف على تناقضات الواقع حين يصور العلاقة بين الفرنسيين والجزائريين في غاية الانسجام والوئام.والثاني يدعى"سالم القبي"الذي نشر سنة 1917 مجموعة شعرية بعنوان"حكايات وقصائد من الإسلام"أتبعها بمجموعة أخرى سنة 1920بعنوان"أنداء مشرقية"ولا يختلف عن الأول في تمجيده للإسلام والشرق وفرنسا في آن واحد[3].

ونظرا لهذا الفراغ المسجل في سنة 1891 التي ظهرت فيها قصة"انتقام الشيخ"، وبين سنوات العشرينيات من القرن العشرين، التي ظهرت فيها عدة نصوص أدبية

[1]أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ص 87

[2]عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث، تر: فيصل عباس، دار الحداثة بيروت، ط2، 1982، ص 59-60

[3]أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 88

لجزائريين كتبوا باللغة الفرنسية، ولا سيما في مجال الرواية، فإن جان ديجو المؤرخ الأول للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية يتخذ سنة 1920 انطلاقة حقيقية لهذا الأدب الناشئ، ويعد المؤلف "القايد بن شريف" المعروف ب"أحمد بن مصطفى القومي"بداية تلك الانطلاقة وينظر إليه على أنه أول راوي جزائري يكتب باللغة الفرنسية[1]. رغم المحاولات المتكررة من العثور على هذا المؤلف غير أنه نظرا لغلبة طابع المذكرات الشخصية عليه حيث يروي فيه صاحبه قصة مشاركته في الحرب العالمية الأولى، كمجند جزائري في الجيش الفرنسي تعذر ذلك.

وإذا سلمنا بهذا التاريخ على أنه بداية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وهو لا ينكره بعض الباحثين المعروفين، ولكنهم يتجاهلونه في الوقت ذاته كما يتجاهلون كل ذلك الأدب الذي كتبه الجزائريون بالفرنسية في فترة مابين الحربين، فهناك ملاحظة لا يمكن لنا أن نتجاوزها هنا بدون أن نبحث فيها، وهي طول المدة التي تفصل بين بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وبداية ظهور هذا الأدب، فهي مدة تزيد عن التسعين عاما وهو أمر غير عادي وغير طبيعي، لا سيما بدعوى أن الاستعمار الذي كان يردد دائما أن رسالته في الجزائر هي رسالة حضارية[2]. والحقيقة أن هناك عوامل وأسبابا عديدة أخرت ظهور هذا الأدب كل هذه المدة أبرزها[3]:

1- سياسية العدوان التي انتهجها الاستعمار طوال احتلاله للجزائر وحربه الاستئصالية ضد الأمة الجزائرية ومقوماتها الأساسية، الشيء الذي جعل العلاقة بين المحتلين وأهل البلد الشرعيين علاقة حرب ومتاجرة وتوتر دائم منعت أي احتكاك إيجابي بين الطرفين ووقفت حائلا دون أي تعاون مثمر، سواء على الصعيد السياسي أو الفكري أو الحضاري، وذلك لانعدام الثقة بينهما، والثقة شرط أساسي لقيام مثل ذلك التعاون المنشود في مجال السياسة أو التلاقح الفكري، أو التأثير الثقافي والحضاري.

[1] أحمد منور، الأدب الجزائري بلسان الفرنسي، ص 89

[2] المرجع نفسه، ص 89

[3] المرجع نفسه ص 90

2- سياسة التعليم التي طبقها المحتلون في الميدان، أو على الأصح سياسة التجهيل التي طبقوها بحيث قضوا على البنية التقليدية للمنظومة التعليمية التي كانت قائمة قبل الاحتلال، ولم يعوضها بمنظومة أخرى تضمن لكل أبناء الشعب الحد الأدنى من التعليم كما كان الحال في فرنسا.

ونظرا لهذه الوضعية العدائية المستحكمة التي ظلت تطبع العلاقة بين الطرفين فقد كان أي تبادل ثقافي أو تلاقح فكري أو تأثير حضاري بينهما يكاد يكون منعدما، فلقد كان المحتل ينظر نظرة احتقار في الغالب للثقافة المحلية، أما الجزائريون فكانوا يتوجسون خيفة من ثقافة المحتل، ويقابلون بحدة كل ما يصدر عنه. ولكن هذا الوضع عرف عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى بعض الانفراج ووقع ما يشبه نوعا من التقارب الحذر بين الطرفين، حيث حاول كل طرف الانفتاح على الآخر وساعد على ذلك حالة الانفراج الدولي التي أعقبت الحرب، وإعلان مبادئ ويلسون الشهيرة التي تحدثت لأول مرة عن حق الشعوب في تقرير مصيرها[1].

وكان هناك عامل سياسي آخر له تأثير أيضا تمثل في بداية استعداد المحتلين للاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر وكان لابد من إظهار شيء ما أمام الرأي العام العالمي، والفرنسي نفسه، يبرر استمرار احتلال البلد، ويظهر ثمار"الرسالة الحضارية"التي طالما ادعى الاستعمار الفرنسي أنه جاء لنشرها في الجزائر فكان لابد من تشجيع الأدب ونشر أعمال إبداعية لكتاب من"الأهالي" تظهر كيف أن"جمعة أو friday" قد حفظ الدرس،وعلى هذا النحو ظهرت عشرية 1920-1930 خمسة أعمال أدبية، وهي مجموعة "سالم القبي" الشعرية، والسيرة الذاتية للقايد بن شريف، نضيف إليهما "زهراء امرأة المنجي" لعبد القادر حاج حمو التي صدرت سنة 1925، و"مأمون"لشكري خوجة التي صدرت سنة 1928. و" العلج أسير بربروسيا"للكاتب نفسه التي صدرت سنة 1929، وواضح أن هذا العدد القليل من الأعمال الأدبية لا يشكل عامل فخر إذا قيس بطول فترة الاحتلال أو بحجم الدعاية التي أحاطت بها السلطات نفسها، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذا العدد نفسه يعكس مدى عقم

[1]أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 91.

المدرسة الاستعمارية وضآلة النتائج التي أعطتها سياسة الاستعمار التعليمية بخصوص الأهالي[1].

ولأن الكتاب من أبناء البلد الأصليين الذين نشرت أعمالهم قد اختيروا بعناية كبيرة، وهم قبل كل شيء نتائج المدرسة الفرنسية وينتمون في معظمهم إلى أبناء الذوات، وإلى المتعاونين مع الإدارة الاستعمارية ممن كانت أحوالهم ميسرة، ويؤمنون فوق هذا بفكرة التعايش مع الاستعمار، وبفكرة الاندماج في مجتمع المستوطنين، فإنهم كانوا يشيدون صراحة، وبلا تحفظ ب(فضل) الاستعمار على البلد، ويظهرون إعجابهم بالثقافة والحضارة الفرنسية، غير أن القضايا التي عبروا عنها قد عكست بالرغم من كل ذلك وعن غير قصد منهم، فيما يبدو، العديد من الإشكاليات المعقدة التي كانت تطرحها تلك الثقافة والحضارة الغربية الليبيرالية بالنسبة للمجتمع الجزائري المسلم.

ومن أهم تلك الإشكاليات التي كونت الهاجس الرئيسي في تلك الأعمال الأدبية مسألة حرية تعاطي الخمور، ولعب القمار، وهي عادات كانت تشكل جزءا من الحياة اليومية العادية للفرنسيين، أدخلوها معهم إلى جزائر، وصارت شيئا مباحا لا يعاقب عليه القانون وكذا تسامحهم في ممارسة الدعارة، وتعاطي بعض المخدرات مثل الحشيش حيث كانوا يعدونها من الأمور الشخصية التي تتعلق بحرية الفرد في المجتمع، في حين تعد هذه الأشياء من المحرمات في الشريعة الإسلامية، وتلزم إقامة الحد على مرتكبها، مع العلم أن هؤلاء الكتاب لم ينظروا إلى الأمور المذكورة من وجهة النظر الشرعية المحضة، وإنما أولوا عنايتهم بتصوير آثارها المدمرة على الأسرة المسلمة في الواقع الاجتماعي[2].هذا ما حاولت أن تعبر عنه رواية"زهراء امرأة المنجي" لعبد القادر حاج حمو، التي تعد بحق باكورة الأعمال الروائية للكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية، فقد كان بطلها وهو عامل جزائري يعمل في مناجم الفحم بضواحي مدينة مليانة يعيش مع زوجته عيشة راضية، رغم فارق الأجر الكبير بينه

[1] المرجع نفسه ص 93_94.

[2] أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 95_96.

وبين ما يتقاضاه أي عامل أوروبي، وما إن خالط مجتمع المدينة وعاقر الخمرة مع رفاقه من العمال الأوروبيين حتى تدهورت حاله وأهمل زوجته، وترك الصلاة، وانتهى به الأمر الى السجن متهما بارتكاب جريمة قتل لم يقترفها في الحقيقة[1]. والشيء المؤكد أنه حتى وإن جاءت ولادة الشكل الروائي لدى الجزائريين في سنوات العشرينيات كاختيار فردي في أحد جانبي الظاهرة كما يرى مصطفى الأشراف[2]، فإن موضوع معاقرة الخمرة وتعاطي الحشيش ولعب القمار لم يأت عفويا ولم يكن أبدا مجرد مسألة شخصية أو موضة أدبية لدى كتاب هذه الفترة[3].

ثم بعد ذلك توسعت دائرة النقاش لتتعرض إلى بعض القضايا الآنية ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي، مثل ظاهرة هجرة الفلاحين الجزائريين إلى فرنسا ليتحولوا هناك إلى عمال، فيعلل أسبابها ويبين دوافعها، ويكشف عن العراقيل التي يضعها المعمرون في طريق هجرة الفلاحين ومثل الاتهامات الباطلة التي كثيرا ما يفسر المحتلون كل نشاط ثقافي أو اجتماعي أو سياسي للشبان الجزائريين، فيرمونهم تارة بالتعصب الديني، وتارة بالميول الشيوعية الهدامة ومنها قضايا ذات بعد حضاري وديني حيث تجري مقارنة في غاية الإقناع وقوة الحجة بين طبيعة"الاحتلال الغربي"من جهة وبين طبيعة الاحتلال الروماني قديما والفرنسي حديثا والآثار التي خلفها أولئك في البلاد والعباد[4].

وتندرج في هذا السياق رواية"ابن الفقير"لمولود فرعون التي يعود تاريخ كتابتها إلى سنة 1929[5] حيث يلتقي كاتبها مع كتاب هذه المرحلة في منطلقاتهم

---

[1]تكشف الرواية في الأخير أن المقتول جاء هاربا من إيطاليا، وبعد ارتكابه جريمة قتل غير أن أهل القتيل تمكنوا من معرفة مكانه في الجزائر، فبعثوا إليه من يأخذ بثأرهم منه.

[2]أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 96_97.

[3]لم يشغل هذا الموضوع الروائيين وحدهم وإنما شكل الموضوع الرئيسي في هذه الفترة لدى رجال المسرح أيضا في مسرحيات عدة منها : "الشفاء بعد المنع" (1923)، "خديعة الغرام"و"بديع" (1924) لمحمد المنصالي.

[4] أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 99_100.

[5]يوسف نسيب، مولود فرعون حياته وأعماله، تر: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991 ص 41.

الفكرية، أي في الإيمان بمبدأ سياسية الاندماج والتعايش مع الأوروبيين والأهالي وقد كتب روايته"ابن الفقير" انطلاقا من هذا المنظور حيث كان يعتقد أن الأهالي" قد أتيحت لهم فرصة التعرف على بلاد فرنسا ومكانها عن طريق الهجرة وعن طريق المدرسة (حتى أن أطفال القرية يعرفون من أين ينبع نهر السين) و ما بقي إلا أن يسقط القناع الوحشي البدائي، أو بعبارة مختصرة اللاإنساني، الذي تختفي وراءه وجوه الأهالي، وعندما يسقط القناع يتم التعارف من كلا الجانبين[1]. وقد عرفت سنة 1948 خروجا عن هذا التقليد الذي سارت عليه الرواية المكتوبة بالفرنسية في الجزائر، بصدور روايتي"إدريس" لعلي الحمـــامي، و" لبيك"لمالك بن نبي وكلا الكاتبين كانا بعيدين عن الفكر الاندماجي فقد كان الأول أحد المناضلين الجزائريين الذين عرفوا بكفاحهم الطويل ضد الاستعمار بالسلاح وبالفكر على السواء، وهذا ما يفسر أن الطبعة الأولى من هذه الرواية التي كانت سباقة إلى طرح موضوع الكفاح المسلح كسبيل وحيد للتحرر من الاستعمار، نشرت في القاهرة، لأنه كان من المستحيل إصدار مثل هذه الرواية الثورية آنذاك في الجزائر، أو حتى في فرنسا.

أما الثاني فهو مفكر إسلامي، كان قد عبر عن توجهه الفكري في كتابه"الظاهرة القرآنية" التي كان قد صدرت قبل عام من روايته المذكورة، في هذه الرواية يعود الكاتب إلى معالجة موضوع الخمرة الذي كان يشكل الهاجس الرئيسي لكتاب العشرينيات، ولكن من منظور جديد، وفي نطاق تصور نظري متكامل لدى المؤلف عن شروط النهضة الجزائرية[2].

وشكل ظهور"الدار الكبيرة"لمحمد ديب سنة 1952 منعطفا حاسما في تطور الأدب الروائي الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية على مستوى المضمون، فلأول مرة تتجاوز فيه هذه الرواية صالونات المثقفين ومناقشاتهم الفوقية عن العدالة والمساواة في ظل الحكم الاستعماري، ووهم التعايش السلمي بين الأهالي والمعمرين، وقد تأكد هذا التوجه الجديد في أعمال الكاتب اللاحقة، لا سيما في روايتي"الحريق"

[1] يوسف نسيب، مولود فرعون حياته وأعماله، ص 32

[2] أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 104_105

1954 و"النول"1957 اللتين تشكلان امتدادا وتكملة ل"الدار الكبيرة"فقد كشفت الأولى عن عالم البؤس في الريف ومعاناة الفلاحين من الفقر المدقع، وصورت الثانية حياة الحرفيين في المدينة، التي لم تكن تختلف في شيء عن حياة الفلاحين البائسة[1]. وظهرت في هذه الفترة نفسها أعمال روائية أخرى لكتاب آخرين تسير في الاتجاه نفسه الذي سارت فيه أعمال"محمد ديب" الأولى نذكر منها على الخصوص رواية"نوم العدل" 1955 لمولود معمري و"نجمة"لكاتب ياسين. فقد كشفت الأولى عن حالة التخلف والفقر التي كانت تعاني منه القرى القبائلية المنعزلة في رؤوس الجبال، في حين تعرضت الرواية الثانية لحالة البطالة والفقر المدقع الذي يعيشه الجزائريون في المدن، والاستغلال والمهانة التي يتعرض لها العاملون في ورش المعمرين، وقد تناول الكاتب أيضا في جانب من الرواية مظاهرات 8 مايو 1945 وصور وقائع من القسوة والوحشية التي قمعت بها تلك المظاهرات[2].

وبعد ذلك برزت النزعة الاحتجاجية التي عرف بها الأدب الجزائري الفرنسي اللسان في فترة الخمسينيات لتتحول مع الوقت إلى نزعة نضالية ثورية في أعمال"كاتب ياسين" اللاحقة، و"مالك حداد"و"آسيا جبار"، في توافق مع الأحداث السياسية التي تطورت بداية من سنة 1954 إلى كفاح مسلح، وهذا هو المعنى الذي عبرت عنه الأعمال الروائية اللاحقة التي ظهرت بدءا من 1958 مثل رواية"الانطباع الأخير"1958 ل"مالك حداد"والتي تعد أولى الروايات التي صورت وقائع الثورة المسلحة، و"صيف إفريقي" 1959 ل"محمد ديب" التي قدمت نماذج من صور المقاومة أبطالها فلاحون في الأرياف وحرفيون في المدن[3].

وقد عاد" محمد ديب" إلى تصوير أحداث الثورة من جديد في رواية اللاحقة"من يذكر البحر"1962، ولكن بأسلوب مغاير، حيث لجأ فيها الى استعمال الرمز، ليعبر بذلك عن أجواء التوتر والرعب التي كانت تسود المدن، وعن حالة الخراب والدمار

[1] أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي ، ص 104_105

[2] المرجع نفسه، ص 107

[3] المرجع نفسه، ص 109

التي آلت إليها القرى و المداشر. ويرسم مالك حداد أيضا جو الحرب في روايته"التلميذ والدرس" 1960 و"رصيف الأزهار لم يعد يجيب"1961[1].

وتنتمي معظم الأعمال الروائية التي ظهرت بعد الاستقلال، وحتى نهاية سنوات الستينيات تقريبا إلى هذا الاتجاه الذي يمكن أن نصفه بالاتجاه الملتزم والمنحاز إلى الثورة، مثل ما نجد في رواية"أطفال العالم الجديد"لآسيا جبار، ورواية"الأفيون العصا" 1965 لمولود معمري، ورواية "أصابع النهار" 1967 لحسين بوزاهر ، ورواية"أسلاك الحياة الشائكة"1969 لصالح فلاح.

وبدأ يظهر في منتصف الستينيات، ضمن أدب الجزائريين المكتوب باللغة الفرنسية، توجه جديد لاسيما في الرواية، غلبت عليه النزعة السياسية الانتقادية، نذكر منها على الخصوص أعمال محمد ديب الروائية التي ظهرت في الفترة مابين 1968 و1973"رقصة الملك"1968، و"إله أرض البربر"1970 و"معلم الصيد"1973 ورواية"المؤذن"لمراد بوربون، و"ضربة شمس"لرشيد بوجدرة، فكل الأعمال الروائية يجمعها قاسم مشترك واحد يتمثل في النقد شديد اللهجة للأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزائر، وقد استمر التوجه الانتقادي حتى بعد وفاة الرئيس هواري بومدينفي أواخر شهر ديسمبر 1978. ونجد ذلك بارزا في روايات"رشيد ميموني"خاصة مثل رواية"النهر المحول" 1982 ورواية"طومبيزا" 1984، وكذا الأمر في روايات الطاهر جاووت ولكن برمزية أكثر إيغالا وغموضا، وبلهجة أقل حدة مثل رواية"الباحثون عن العظام" 1984[2].

واستمر هذا الاتجاه في الظهور حتى بعد مظاهرات أكتوبر 1988 وصدور دستور 23 فبراير 1989 الذي سمح بالتعددية السياسية ولعل أبرز رواية ظهرت في هذه الفترة هي رواية"شرف القبيلة"1989 لرشيد ميموني في شكل كاريكاتوري

[1] أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 110

[2] المرجع نفسه،ص 121

ساخر[1]. وفي مطلع التسعينيات ومع صعود المد الإسلامي في هذه الفترة ودخوله بقوة معترك السياسة، أخذت تظهر أعمال روائية في هذا الأدب وتعد أعمال رشيد ميموني القصصية والروائية أبرز النماذج في هذا الصدد، مثل"حزام الغولة"1990 ورواية"اللعنة"1993[2].

وقبل أن ننهي الحديث عن التطور الذي عرفه أدب الجزائريين باللغة الفرنسية، لابد لنا أن نشير الى أسماء كتاب جدد من أصل جزائري برزوا في فرنسا في العقدين الأخيرين أمثال[3]: زوليخة بوقرط، علي غالم، مهدي شارف، أكلي تاجر، محمد كنزي وناصر كيتان وغيرهم، فبحكم أصولهم الجزائرية كثيرا ما يتناولون موضوعات لها صلة من قريب أو بعيد بالجزائر والجزائريين.

هذا من حيث التطور الذي عرفه هذا الأدب في مراحله المختلفة التي يمكن أن نميز فيها أربع مراحل رئيسية :

1- مرحلة مابين الحربين : هي مرحلة البداية التي كانت متعثرة فنيا، متذبذبة سياسيا.

2- المرحلة التي تمتد مابين نهاية الحرب العالمية الثانية وقيام ثورة التحرير: هي مرحلة التململ والقلق وترقب ما سيحدث.

3- مرحلة الثورة : التي لم يكن فيها أمام الكتاب أي مجال للتردد أو الحياد

4- مرحلة مابعد الاستقلال: التي عرفت تنوعا كبيرا في المواقف والرؤى حول مختلف القضايا الاجتماعية.

[1] أحمد منور، الأدب الجزائري المكتوب باللسان الفرنسي،ص 122

[2] المرجع نفسه،ص 124

[3] المرجع نفسه،ص 125

المبحث الثاني :الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية وإشكالية الهوية

من أهم الإشكاليات التي أثيرت وتثار حول الأدب الذي يكتبه الجزائريون باللغة الفرنسية في الفترة الاستعمارية إشكالية هوية هذا الأدب وإلى أي جهة ينبغي أن ينسب؟ أيعد أدبا فرنسيا كما يرى بعضهم نظرا إلى اللغة التي كتب بها، وإلى الجمهور الذي كان يتوجه إليه، أم يعد أدبا جزائريا باعتبار الروح التي كتب بها كما يقول آخرون؟ وفي كلا الحالتين أيعد أدبا قوميا فرنسيا في (الحالة الأولى) حتى ولو كتبه فرنسيون من أصحاب الجنسية المكتسبة بالأصل من بلد ليس فرنسيا في نهاية الأمر ؟ أو أدبا جزائريا في (الحالة الثانية) حتى ولو كتب باللغة الفرنسية؟

ومهما كانت الإجابة فإنها تفتح الباب على إشكالات جديدة أو محاولة التوفيق بين محتوى الإجابة وبين مفهوم القومية والأدب القومي[1]. ولا يخفى علينا أن هذه الظاهرة -ظاهرة الكتابة بلغة المستعمر-فقد عرفتها بنسب متفاوتة معظم البلدان التي كانت خاضعة للاستعمار الفرنسي، وعليه فإن الأسئلة التي طرحت فيما يتعلق بالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية هي أسئلة مطروحة أيضا بالنسبة للأدب الإنجليزي والإفريقي واللاتيني ولكي نجد لها جوابا موضوعيا ينبغي أن تعالج حسب رأينا في الإطار التاريخي والجغرافي والسياسي مع الأخذ بعين الاعتبار في الوقت نفسه بظروف كل بلد وبخصوصياته اللغوية والثقافية وبطبيعة الاستعمار الذي خضع له .

فهناك فرق بين الاستعمار الاستيطاني والاستعمار الفرنسي مثلا والاستعمار الإنجليزي، فالأول يعمل على هدم البنيات الثقافية واللغوية التي كانت قائمة من قبل ليحل محلها بنيات أخرى لا علاقة لها في الأصل بلغة البلد وثقافته، أما الثاني يعمل على إبقاء البنى الثقافية القديمة ويركز على البنية الاقتصادية وحيث إن القضية كعلاقة تتجاوز الحدود السياسية واللغوية للبلدان فإنها تدخل بطبيعتها في اختصاص

[1] أحمد منور، الأدب الجزائري المكتوب باللسان الفرنسي، ص 133

الأدب المقارن الذي أخذ على عاتقه منذ نشأته الخوض في مثل هذه الإشكالية ذات الطابع الدولي[1].وحتى ندرك أبعاد الإشكالية من أساسها ونتعمق في فهمها ينبغي أن نذكر بأن مسألة الانتماء إلى الجزائر قد طرحت من الناحية التاريخية قبل مطلع القرن العشرين من قبل المستوطنين الفرنسيين وكان هناك من بينهم من ولد في الجزائر الذين أرادوا -بعد أن تم منهم انتزاع الأرض من أهلها- أن ينتزعوا الانتساب إليها أيضا فوصفوا أنفسهم "بالجزائريين"وكتبوا أدبا أرادوه أن يكون من داخل الجزائر يتمتع باستقلاليته في مقابل الأدب الذي كتبه عن الجزائر كتاب من الخارج[2]. وقد أكد"ميزات" [3] وهو-أحد أبرز ذلك كتاب ذلك الأدب الاستيطاني المستقل- هذه الصفة حتى بالتسمية لبطل قصصه الشهيرة"كاغابو" حين يسأل أنتم فرنسيون؟ فيجيب لا نحن جزائريون[4].

وتكريسا لهذا الاتجاه الاستيطاني في الأدب، أنشأ الكتاب المستوطنون هياكل تنظيمية تسنده، وتقاليد شخصيته المتميزة، واستقلاليته عن"المتروبول" فأسسوا سنة 1921 جمعية أدبية أطلقوا عليها اسم"جمعية الكتاب الجزائريون"ومجلة تنطق باسم الجمعية سموها" إفريقيا" وأنشأوا جائزة أدبية أطلق عليها فيما بعد اسم"الجائزة الكبرى"، ظلت تمنح سنويا إلى سنة 1954 باستثناء بعض سنوات الحرب العالمية الثانية[5].

استعمل بعض الكتاب لغة المحتل لمقاومته ومحاربته في سبيل التحرر أمثال محمد ديب، مولود فرعون وغيرهم وقد وجدت هذه الظاهرة بنسب متفاوتة في العديد من بلدان إفريقيا على وجه الخصوص ولم تقتصر على الجزائر فقط، حيث يوجد اليوم

---

[1] عبد الله الركيبي، الفرانكوفونية مشرقا ومغربا، دار الرواد للنشر والتوزيع، بيروت، 1992، ص 26

[2] أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 138

[3] هو أوغيستروبيني، August robinet ، المشهور بميزات Misette من مواليد الجزائر (1930-1962)

[4]Fadhila yahiaoui "roman et societé coloniale" ed ENAl، Gamalger ,Bruxelles، 1985، p 17

[5] أحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، د ط، دار الساحل، الجزائر، 2013، ص 139-140.

أدب بلغات الدول الاستعمارية، واعتبر الأدب الإفريقي المكتوب باللغة الأوروبية ومنه الجزائري المكتوب بالفرنسية من أكثر القضايا المختلف عليها اختلافا كبيرا، فاعتبره البعض أدبا أوروبيا باعتبار اللغة التي كتب بها وعده آخرون بلا هوية لأن ذلك الأديب غريب عنه لغة وقراءة كما لا تصح نسبته إلى البلد الذي تنتمي إليه لغة الكتابة لأنه غريب عنه واقعا وانتماء لا يربطه به أي رابط سوى اللغة التي كتب بها[1].

على أية حال وإن وجد الاختلاف في مسألة إن كان أدبنا المكتوب بالفرنسية أدبا قوميا أم لا فإننا لا نختلف في كونه جزائريا لا سيما أنه ارتبط في مرحلة من مراحل تاريخنا بالمقاومة الوطنية والكفاح المسلح وهذا جانب مهم ليس من السهل التفريط فيه.

وقد طرح موضوع الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية كإشكالية بعد الاستقلال والحقيقة أن مالك حداد كان بنظرته الاستشرافية سباقا لطرح مشكلة هوية الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية في الفترة الاستعمارية[2].

[1] أحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية في اللغة الفرنسية ، ص 144.

[2] أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 161

ويمكن تقسيم ذلك إلى الآراء التالية :

1- الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية هو أدب جزائري:

نجد أن هناك من يعترف بهذا الأدب وانتمائه الوطني الجزائري وعروبته على الرغم من ثقافته العربية ولغته الأجنبية ويصرح عبد الله الركيبي في خصوص هذا الموضوع فيقول :"وجملة القول فإن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية قد أوجد لظروف وأسباب في مرحلة معينة" أي حتى ولو كتب بلغة غير العربية إلا أنه جزائري المضمون، وطني الواقع هذا الذي يجعله أدبا محليا ووطنيا[1].

ويوجد أيضا كثير من الباحثين والدارسين الذين أكدوا بالانتساب الوطني لهذا الأدب أمثال أبو القاسم سعد الله[2]. كما عبر محمد ديب عن ميلاد أدب جزائري بكل وضوح وثقة حيث قال:"قولوا إن أدبا قوميا يظهر الآن عامة والجزائر خاصة"[3]. كما بين الكاتب مالك حداد حقيقة الانتماء القومي للأدب الجزائري في أكثر من موقف الذي لا يرد إلى عنصر اللغة فحسب، ولا إلى مجرد عاطفة ولكنها تقدس علاقتها بالبلد كافية لتحديد فعل الانتماء ويقر أيضا بدور الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية في تصويره وتجسيده للمجتمع الجزائري بوسيلة لغوية أجنبية مما أنتج خطابا هجينا وهذا حصيلة تفاعل اللغة الأجنبية بالروح الوطنية الجزائرية، لان طغيان الروح الوطنية أدى بالنقاد إلى رفض هذا الأدب الجزائري وهذا تبعا لقوله :" إن أكبر النقاد في فرنسا يرون أن أدبكم هو أدب أجنبي ليختلف اختلافا كبيرا عن الأدب[4].

[1] عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر 2009، ص 273

[2] واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر،ط1 المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986،ص 77.

[3] المرجع نفسه،ص 71.

[4] Djean Dejeaux"situation de la litterature maghrébine de la langue francaise"Alger ,ed ,opu 1982, p84.

2- القائلون بقومية هذا الأدب:

إن أصحاب هذا الرأي يرون أن عامل اللغة لا يمكن أن يعتمد كمعيار لتحديد هوية النص فما دام النص الروائي يعبر بصدق عن واقع المجتمع الجزائري ويصور بإخلاص حالة هذا المجتمع في ظل الاستعمار الفرنسي، كما فعل محمد ديب في ثلاثيته، حيث صور حالة البؤس والحرمان التي يعيشها سكان دار سبيطار ، وسكان جبل " بني بويلان" كما صور حالة العمال المناضلين الذين يقودهم حميد سراج لتحقيق المطالب المشروعة للشعب الجزائري، وكما صور ثقافة هذا البلد وتقاليده التي تختلف تماما عن ثقافة فرنسا الاستعمارية وعادات شعبه وتقاليده ، مثلما فعل مولود فرعون في " ابن الفقير" و" مولود معمري" في الربوة المنسية ، وغيرهما ما دام الأمر كذلك فهو أدب جزائري.

إذن فالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ، إذا نظرنا إليه من زاوية المضمون فإننا نجده مرتبطا ارتباطا كليا بتاريخ الجزائر وبالذات بالمقاومة الوطنية ، ويكافح الشعب الجزائري ضد العدو الأجنبي ، فهو أدب تشكل لمناهضة الاستعمار والدفاع عن الثوابت الوطنية وعن المقومات الشخصية للأمة الجزائرية حفاظا على الهوية من الانسلاخ والضياع فليس من المنطق ولا من العدل أن نعتبر الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية أدبا فرنسيا، كون " أدباء الجزائر استخدموا الفرنسية كسلاح لمواجهة الاستعمار" لأن هذا الاستعمار لا يفهم سوى اللغة الفرنسية من جهة، ومن جهة أخرى ليوصلوا انشغالاتهم إلى كل العالم[1].

فاللغة " ليست هي المكون الثقافي الوحيد وربما ليست حتى الأهم " مقارنة بالمكونات الأخرى التي يتشكل منها النص الروائي كالفضاء الزماني والمكاني والأجواء والأشخاص، وغيرها لأن هذه العناصر تعد بمثابة مكونات ثقافية، فيوم الثامن من مايو 1945 في "رصيف الأزهار لا يجيب" لمالك حداد" ذو بعد ثقافي

[1] قصابي صليحة، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من أواخر الثمانينات إل غاية 2003، أطروحة مقدمة لني لشهادة دكتوراه علوم، تخصص أدب عربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، سنة 2017-2018، ص25.

جزائري خاص وكذلك "وريدة" و" قسنطينة" وبالتالي فهذه العناصر مجتمعة (المكان والزمان والشخوص) لا أعتقد أنها أقل ارتباطا بهوية النص من اللغة واللغة في هذه الحالة ليست سوى أداة استعيرت للتعبير لا أكثر حيث يجب إفهام الآخر.

كما أنها تعد الأحسن ترجمة للأنا وهذا ما عبر عنه مولود فرعون حين قال: " يجب أن لا نبكي ونشعر بالضياع لأننا نكتب باللغة الفرنسية ، فأنا شخصيا إذا كتبت باللغة الفرنسية فإنني لا أشعر بأية عقدة أو نقص" فمهما كانت اللغة التي يكتب بها إنما يقوم بعملية ترجمة لعواطفه وأفكاره هو" فلا داعي للقلق إذن، فما اللغة إلا وسيلة تعبير[1].

وعليه فاستعمال اللغة الفرنسية لا ينقص من قيمة هذا الأدب ومن جزائريته فهو يظل جزائريا ما دام يحمل روحا عربية، وهمّا جزائريا ونزعة ثورية.

3- القائلون بأنه أدب فرنسي:

هناك من الباحثين من ينفون انتماء الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية إلى الهوية الجزائرية، كون اللغة التي كتب بها ليست سببا كافيا لإثبات الانتماء الفرنسي وتحقيق الهوية وليست وطنية فهو ليس من الجزائر في شيء، ولن يكون جزائريا، ويرى أنه ليس ممكنا اعتبار رواياتهم (أي الكتاب باللغة الفرنسية جزءا من التراث الثقافي العربي) ومن هؤلاء من وضع الكتاب الجزائريين في صف واحد مع الكتاب الفرنسيين الذين ولدوا أيضا على أرض الجزائر وعاشوا فيها.ويستند أصحاب هذا الرأي في ذلك إلى وجهة نظر مدرسة الأدب المقارن الفرنسية نفسها، التي تلحق الأدب - مهما كانت جنسية كاتبه- بالأمة التي تتكلم اللغة التي كتب بها ذلك الأدب وتعده من أدبها القومي[2].

وإذا تفحصنا هذا الأدب الذي كتبه أدباء جزائريون بلغة المستعمر، وخاصة الذي سبق سنة 1950 نجده في مجمله يعبر عن الأفكار التي كان يروج لها المستعمر

[1] المرجع نفسه، ص 26

[2] أم الخير جبور ، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ، ص 47

الفرنسي ويعمل على ترسيخها داخل المجتمع الجزائري، وخاصة ما تعلق منها بالجانب الثقافي، فالكتابات الأولى التي ظهرت من سنة 1920 من قبل عبد القادر حاج حمو ورابح زناتي و" محمد ولد الشيخ " وغيرهم وكانت تمجد الاستعمار وتدعو إلى سياسة الإدماج، لأن هؤلاء الكتاب في الحقيقة هم نتاج المدرسة الفرنسية ولهذا لا نستغرب حين نجدهم يشيدون بفضل الاستعمار عليهم ، ويبدون إعجابهم بالثقافة الفرنسية والحضارة الغربية وما تتميز به من تشجيعها على نشر الرذائل الفاحشة وما إلى ذلك.

وهذا ما أدى بأحد الدارسين الجزائريين ليصرح قائلا: " إن هذا الأدب غريب في نفسه ومنفي عن موطنه الذي كتب فيه ولم يستطع أن يلعب دورا كبيرا في نهضة الأدب المعاصر بالجزائر فضلا عن أن يلعب دورا خطيرا في إذكاء نار الثورة التي قيضت للشعب الجزائري أن يكسر قيود الاستعمار الثقيلة"[1]. وهو رأي ينفي جزائرية هذا الأدب.

فلو نظرنا إلى المستوى الثقافي للجزائريين في ذلك الوقت فإننا نجد أكثر من ثمانين بالمائة منهم أميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة فما بالك بمعرفتهم بلغة أجنبية عنهم (الفرنسية) وهذا يطرح السؤال بقوة : لمن يكتب هؤلاء يا ترى ؟ طبعا ستكون الإجابة إنهم يكتبون لمخاطبة الفرنسيين لا الجزائريين وليتهم كانوا يخاطبونهم للمطالبة بحق الجزائريين في العيش الكريم والحرية[2].

[1] قصابي صليحة، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من أواخر الثمانينات إلى غاية 2003 م ، ص27

[2] قصابي صليحة، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ص 28.

4- القائلون بأنه أدب بلا هوية:

هناك اتجاه ثالث يقف بين الرأيين المتعارضين حيث يرى بأن الكتاب الجزائريين بالفرنسية لم يتمكنوا من إرضاء جمهورهم الفرنسي ولا حتى الجزائري مما جعل هؤلاء الكتاب يشعرون أنهم يقفون على الهامش في الضفة الأخرى بين المجتمع الفرنسي وكذا الجزائري[1].

ولذلك فهو أدب بلا هوية ، حيث إنه لا يملك من الفرنسية سوى اللغة التي كتب بها، فكيف للأديب في هذه الحالة أن ينقل مشاعره وأفكاره للمواطن الفرنسي الذي يملك ثقافة مغايرة تماما لثقافة الكاتب الجزائري، كما أن الأديب لا يستطيع إيصال أفكاره التي يعبر عنها بلغة الغير إلى أهل بلده الذين لا يتقنون هذه اللغة بحكم الجهل والأمية التي عانى منها المجتمع الجزائري في تلك الفترة بدليل نسبة المثقفين حينذاك لم تتعد الثمانية في المائة 8%.

وفي هذا المجال شبه الناقد " عبد الحميد حنون" هذا الأدب بالمولود الاستثنائي، يولد ويكبر ويساهم في الحياة لكنه لا يمتلك شبيها ولا يمكن التخلي عنه[2].واستنادا إلى الآراء المتضاربة حول هوية هذا الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية والتي أسالت الكثير من الحبر من طرف النقاد في ميدان الأدب يمكن أن نشير إلى نقطة تثير الانتباه، ويمكن أن نعتبرها بيت القصيد في كل هذه الآراء المتضاربة هي النقطة التي جاءت بها الدكتورة " أم الخير جبور" حيث تقول عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية "كائن مميز يجمع بين الشكل الفرنسي والمضمون الجزائري، إذ لا يمكن أن ننفي عن هذا الأدب جزائريته، بالنظر إلى التصاقه بالواقع الجزائري وبالثورة الوطنية العظمى"[3].

---

[1] أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية (دراسة سوسيونقدية) ، ص 47.

[2] قصابي صليحة، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من أواخر الثمانينات إلى غاية 2003، مرجع سابق، ص 30.

[3] قصابي صليحة، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ، ص 30

المبحث الثالث :الكتابة باللغة الفرنسية وأشهر الأعلام

هناك الكثير من الكتاب الذين كتبوا بغير اللغة العربية إما مضطرين لذلك أو برغبتهم لعدة أسباب سياسية، وهذا ماجعل منها المحور الأساسي في الأدب الجزائري المعاصر، فهي لغة العدو التي طالما سعى إلى نشرها، فشكلت ظاهرة ثقافية ولغوية متميزة وأثارت بين النقاد جدلا كبيرا، فإننا نقف أمام مشاعر وآراء الكتاب حول الكتابة بغير لغتهم. فهناك من شعر بنقص كبير اتجاه اللغة الفرنسية مثل مالك حداد الذي يقول:"لقد أراد الاستعمار ذلك لقد أراد أن يكون عندي هذا النقص لا أستطيع أن أعبر بلغتي"[1]، فهو يحس بالعجز والألم القاسي والغربة عندما يريد أن يعبر عن الأفكار والمشاعر الجزائرية بلغة فرنسية، كما قال :" إن اللغة الفرنسية منفاي" التي جلبت له الكثير من المتاعب والمشاكل وبقي مخلصا لمبدئه بعد الاستقلال حيث قال: "ذهب الفرنسيون مع لغتهم وعدنا إلى بلدنا ولغتنا ويجب أن تكتب وتعبر بها عن آلام الشعب، وليست انتماء للثقافة والأدب الفرنسي".

أما الروائي محمد ديب فيؤكد أن الكتابة بالفرنسية سلاح للتعبير عن آلام الشعب وليست انتماء للثقافة الفرنسية والأدب الفرنسي فيقول:" أن كل قوى الخلق والإبداع لكتابنا وفنانينا يوقفونها في خدمة إخوانهم المظلومين تجعل من الثقافة سلاحا من أسلحة المعركة ... ولأسباب عديدة فإننا –ككتاب- كان همي الأول هو أن أضم صوتي إلى صوت المجموع". حسب رأيه أن استخدام اللغة الفرنسية لم يكن شرا ويعود ليقول:" أنه لن يشعر بالانتماء لمجتمع ما بمجرد الكتابة بلغته فالتفوق سيكون دوما للأرض والجذور"[2].

[1] سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، دط، المكتبة العصرية بيروت، د سنة، ص 205

[2] المرجع نفسه، ص 85

1- مالك حداد:

الرواية عند مالك حداد تبنى من أولها إلى آخرها على خيال الكاتب من أفكار وهواجس ومشاعر وآمال بالمستقبل، فالكاتب يولي الألفاظ الشعرية والتأملات الوجودية أهمية كبيرة على حساب الشخصيات والمواقف حيث يقول:" أن ما يعنيني هو الشعر وليس القصيدة، وفي مجال الرواية، ما يهمني هو الأثر النهائي وليس البناء والمواقف والشخصيات". وتراوحت الأعمال الإبداعية لمالك حداد بين الرواية والترجمة والدراسة، ويبلغ العدد الإجمالي لهذه الأعمال اثنتين وعشرين عملا[1].

ويرى أنه لا يمكن أن نحمل الكاتب فوق طاقته ومن الخطأ أن يعتقد أنه ضروري للحياة، وضروري لبقاء المجتمع فهذا الاعتقاد كان محبوبا ومتداولا كثيرا عند بعضهم إلا أنه يحمل زيفا كبيرا، إن الكاتب إنسان عادي له ألف بديل وهو شاهد على التاريخ فقط وليس صانعا له ولا يمكنه تغيير شيء، وهنا يتساءل مالك حداد من يصنع الوطن ويسرع مجيبا نافيا أن يكون الوطني هو الذي يصنع الوطن ولكنه يثمن دور الكتابة في واقعه فيربط أهمية القلم الذي يحمله بأهمية الرشاش أو مقبض المحراث، فالكتاب في فترات الثورات يزعجون راحة الاستبداد فكتاباتهم فعالة كأي شكل أو أسلوب آخر، والأعمال الأدبية الصادرة في ظل واقع الاحتلال بناء يضاف وهو لا يضع حاجزا بينه وبين الجزائريين ممن لا يتقنونها.

فالعربية حاضرة في أعماله الروائية رغم غيابها، كما استخدم مالك حداد عبارات استعارها من الشارع الجزائري مثل : اللي فات مات li fet met ولابأس abesse مرفوقة غالبا بشرح في الهامش. وتوجد أهم مقولة له تؤكد اعتزازه بقوميته حيث قال:"نحن نكتب بالفرنسي ولا نكتب بالفرنسية"[2] nous écrivons le français , nous écrivons pas en français.

[1] أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية (دراسة سوسيونقدية)، ص 400

[2] المرجع نفسه، ص 411.

2- كاتب ياسين:

يؤكد كاتب ياسين أن الكتابة قوة محررة لا وطن لها، وتعد اللغة الفرنسية أقرب إلى السلاح لا يهتم حامله بمصدره طالما يخدمه في المعركة، فهو نجح من خلال الكتابة باللغة الفرنسية إلى الانتقال من عالم إلى عالم آخر وبين العالمين قوة عميقة يقف فيها الكاتب مسجلا ما يخطر في باله. وهنا نرى أن كاتب ياسين يتفق مع محمد ديب فيما ذهب إليه من أن تعبير كاتب من الكتاب بنفسه لا يكفي لتحضير ثورة من الثورات بل يجب أن يساعد الآخرين على التعبير، والانشغال باتصال الأصوات التي يكتبها ويتفق معه أيضا في قناعته.

ونرى أن الثقافتين العربية والفرنسية تتشابكان في الكتابات - كاتب ياسين- فقد تمكن من التعبير عن ظواهر غريبة من الثقافة الفرنسية بلغة فرنسية واستطاع أن يتسلل من خلال اللغة إلى عمق الاحتلال ويفجره من الداخل، حينما سئل عن القوى التي تربطه بواقع بلاده أجاب قائلا :" من الصعب علي تحديد هذا الأمر، فمعظم ذكرياتي وإحساساتي وأحلامي ومناجاتي الداخلية مرتبطة ببلدي، فمن الطبيعي أن أشعر بها في قالبها الأصلي بلغتي الأم العربية، ولكن لا أتمكن من تقديمها والتعبير عنها إلا باللغة الفرنسية"لقد شكلت الكتابة في رواية نجمة القطيعة الكبيرة مع جمالية اللغة الفرنسية ولسانيتها فعلاقة القوة والسلطة مع الآخر انتقلت إلى صورة مختلفة فقد انفجرت المعالم السابقة وزحزحت من مكانها بفعل هذا الانتقال الذي أحدثه كاتب ياسين، وفي الرواية تعبر اللغة العربية عن الحميمية والحب، أما اللغة الفرنسية فتبقى لغة حاجز بالنسبة للشخصيات الجزائرية،هكذا استوعب مصطفى الأمر:" لقد تحدثت معي بالفرنسية، هي رغبة في قطع حبال الود بالتعامل معي وكأنني مجرد خادم وكذا ككافر".

ويلاحظ وجود صيغ عربية في هذه الرواية مثل "أواهAooah" المستعملة للتعجب وقد اختار كاتب ياسين التحول إلى كتابة المسرحيات باللغة العربية للتقرب من جمهوره الجزائري الذي أشعره بالانتماء إلى الأرض والشعب[1].

3- مولود فرعون:

في رواية مولود فرعون"ابن الفقير" الصادرة سنة 1953، يبين كيف يكون الطبع الحقيقي للرجل القبائلي، حيث يولد الطفل في هذه المنطقة من أجل المعركة في سبيل الحياة ،أما الجانب الآخر الذي تصوره الرواية وهو الجانب الذي يصف الظروف التي مهدت لثورة التحرير، إنه الصراع من أجل إجادة لغة عربية وثقافة غربية حيث يشعر"فورولو" بنفسه غريبا في الثانوية الفرنسية ويخشى الطرد لأتفه الأسباب، وتعد رواية ابن الفقير سيرة ذاتية تصف طفولة الكاتب ومراهقته[2]. أما رواية"الأرض والدمla terre et le sang" الصادرة سنة 1957م فتقع أحداثها مابين الحربين العالميتين وتنتهي عام 1930، يعاني فيها البطل عامر معاناة شديدة بسبب هجرته إلى فرنسا طالبا للعمل ليعود إلى قريته مع زوجته الفرنسية ولكنه لم يتمكن من التأقلم مع واقعه الجديد في قريته الصغيرة فلا هو تمكن من التأقلم في الغربة ولا تمكن من الحياة في قريته من جديد إلا بصعوبة كبيرة، ويعد مولود فرعون نموذجا لجيله جمع في ذاته عالمين وثقافتين وصور المشكلات والمتناقضات التي زخرت بها مرحلته هذا فضلا عن سبقه التاريخي في مجال الرواية، هذا الأمر الذي لا يعتقد به كل الباحثين والنقاد يرجعه بعضهم إلى الفيلسوف والأديب"مالك بن نبي" في روايته"لبيك" الصادرة سنة 1947 عن دار النهضة في الجزائر أي قبل رواية "ابن الفقير" بخمس سنوات ويرجعون ريادة مولود فرعون إلى مساهمة بعض الأدباء الفرنسيين أمثال:"جون ديجو" الذين أشادوا برواية"ابن الفقير" واعتبروها الانطلاقة الحقيقية للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية وسواء ثبتت هذه الريادة أو لا، فإنه

[1] أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية (دراسة سوسيونقدية) ص 79-81،84.

[2] نوال بن صالح، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير (صراع اللغة والهوية)، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ص 223

يبقى أحد كبار كتاب المغرب العربي ذوي التعبير الفرنسي الذين حاز إبداعهم شهرة واسعة ليس في وطنه فحسب بل في فرنسا كذلك[1].

4- محمد ديب:

كاتب آخر كانت له بصمة واضحة في أدب المقاومة ،إنه محمد ديب ولد في 21 جويلية 1920 بتلمسان وهو مؤلف الثلاثية المسماة" ثلاثية الجزائر"ولا يزال اسمه يقترن بهذا العمل الأدبي المتميز وهي : "الدار الكبيرة 1952 la grande maison، الحريق 1954 l'incendie، النول 1957le métier à tisser".
ولايكاد يذكر اسم"محمد ديب"إلا وذكرت معه الثلاثية ويرجع أمين الزاوي سبب هذا الارتباط بعمل أدبي واحد وشهرته على حساب أعمال محمد ديب الكثيرة إلى : تعلق القارئ المسلم على حد قول محمد ديب نفسه بعمل واحد، يتبناه ويستجيب لرغباته والذي يتحول فيما بعد إلى"كتاب مقدس" وهذا يجيء من جراء التربية الدينية، حيث يتلخص كل شيء بالنسبة للإنسان المسلم في شيء واحد هو القرآن وبالنسبة للقارئ الجزائري(والعربي) تمثل الدار الكبيرة هذه الحالة.
-الاحتفاء السياسي الذي كان يقابل به هذا الأدب من قبل الأوساط الثورية والديموقراطية في أوروبا والمعادية للاستعمار وأساليبه الهمجية، إذ كان الاحتفاء في كثير من المرات يتجاوز الأدب إلى الاحتفاء بالثورة الجزائرية .
- الالتزام السياسي وارتباط اسم محمد ديب بالثورة الجزائرية من خلال الممارسة السياسية .
- البعد الوطني الاجتماعي الذي حملته هذه الثلاثية،وتنبؤها بالدور التاريخي للثورة الجزائرية من خلال جملة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل المستعمرة.
- كونها أول عمل يشكل بحق أدبا متميزا حقق القطيعة النهائية مع أدب مدرسة الجزائر.

[1] المرجع نفسه، ص 225

أما على الساحة العربية فقد كانت ترجمة الدكتور سامي الدروبي للثلاثية ، تلك الترجمة البديعة، عاملا آخر من عوامل شهرة هذا العمل في الشرق بعد أن حقق شهرة واسعة في الغرب، وقد لاقت الترجمة حماسا جماهيريّا منقطع النظير كان ولا يزال يحتفل بانتصار الثورة الجزائرية[1].

5- آسيا جبار:

أما الروائية آسيا جبار فهي كاتبة جزائرية تكتب باللغة الفرنسية إنها عندما تريد أن تعبر عن أحاسيس أو عن عادات المرأة الجزائرية مثلا "تجد نفسها أمام مشكلة ترجمة عواطفها وأفكارها العربية باللغة الفرنسية، وأن هناك شيئا ما ينقص الصورة إلا أن هذه النظرة للعربية لا تعكس طبيعة العلاقة القائمة بين الكاتب أو الأديب باللغة التي يستخدمها لأن الكاتب الذي يكتب بالفرنسية قد تكون له ثقافة ومرجعية يحاول من خلالها إبراز آرائه باللغة التي يرى فيها سبيلا لإيصال أفكاره في فترة ما[2].

[1] نوال بن صالح، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، وثورة التحرير (صراع اللغة والهوية)

[2] حكيمة سبيعي ، هوية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ، ص 517

تمهيد

يمكننا أن نطلق على آسيا جبار لقب "أديبة الغربات الثلاث"، فالقارئ لكتابها أو سيرتها الذاتية "لا مكان في بيت أبي" أو كما عرفت في طبعتها العربية " بوابة الذكريات" يجدها متمحورة حول غربتها اللغوية، وغربة الانتماء، وغربة أوسع هي الغربة الوجودية.

كتبت هذا الكتاب أساسا كما صرحت هي بذلك للتصالح مع نفسها بعد محاولة انتحار، إذ حاولت أن تلقي بنفسها أمام ترامواي بعد مشادة كلامية مع خطيبها، ولكن لم يكن هذا الدافع الوحيد، فهي ككثير من الجزائريين ذوي الثقافة الفرنسية تعاني ما يشبه الانفصام وعلى مستويات متعددة، فعلى المستوى اللغوي تعاني غربة في بيتها إذ تقرأ وتفكر وتتذوق اللغة الفرنسية في حين من حولها ما عدا والدها يتحدثون العربية ويدورون في فلكها وتقول ذلك بطريقة موارية غير مباشرة : " لم أعد أحتفظ من هذه الأعراس إلا بالكنز الصوتي الذي تنطوي عليه التراتيل الممزقة ووخز الشكاوى إرث من الفرح والحزن في الوقت ذاته لف سذاجة عمري، فمراهقتي الحالمة المأهولة ببطلات مسرحيات كلوديل وروايات جيرودو في الآن عينه"[1].

وحاولت مرارا الانتصار على هذه الغربة اللغوية بتعلم الشعر الجاهلي، أو بالطلب من المدرسة أن تدرس العربية كلغة ثانية مع أن طلبها جوبه بالرفض. وبقيت هذه عقدتها تظهر في لقاءاتها الصحفية فحينا تعتبر اللغة العربية لغة ميتة وحينا آخر تبدي أسفها على عدم تعلمها.

وغربتها اللغوية ناتجة عن غربة أعمق وأكبر وهي غربة الانتماء فهي الجزائرية المولودة في الجزائر ولكنها متشبعة بالحضارة الغربية وقيمها، التي تعاني رفضين رفض أهلها باعتبارها غريبة عنهم بنمط التفكير ورفض الآخر المستعمر باعتبارها غريبة عنه بالدين واللغة وحتى الشكل وأنقل فقرة من كتابها توضح ما قصدته، تقول: "كان يبدو لي أنني لست هناك في المرقد وسط العديد من الفرنسيات

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ترجمة محمد يحياتن، منشورات سيديا، الجزائر، 2007 ، ص 266.

حيث كانت بداية الحوار تتواصل في كل مساء، ولا بالمنزل في حين أن المراهقات المسلمات القليلات اللواتي أصبحت قريبة منهم لا يخرجن في كل يوم سبت مثلي"[1].

وهاتان الغربتان سببتا لها شعورا بغربة أكبر هي غربة الوجود نفسه، شكلت لها أزمة في بداية حياتها دفعتها لمحاولة وضع حد لحياتها لم تنجح وبقيت سرا كان من أسباب كشفه كتابة هذه الذكريات، وكيف لجأت إلى الدين أحيانا للتخفيف من هذا الإحساس العدمي والقلق الوجودي . وقبل أن نعرض بالتفصيل في فصلنا هذا لهذه الغربات الثلاث التي عانت منها آسيا جبار يجدر بنا أن نعرف الغربة لغة واصطلاحا:

تعريف الغربة :

أولا: لغة: إذا عدنا إلى القواميس والمعاجم اللغوية نجد أنها تختلف حسب الدلالة اللغوية فإن الزمخشري يذهب في كتاب (أساس البلاغة) إلى أن الغربة تعني البعد[2] . فيما يذهب ابن منظور في لسان العرب إلى أن (الغربة) تعني النوى والبعد والتغريب، النفي عن البلد، والغربة والغروب النزوح عن الوطن ومنه الفعل اغترب[3].

وفي معجم المعاني : الغربة مصدر غَرُبَ،ويقال طالت غربته أي طال بعده عن وطنه وأهله، وأيضا وجدته في غربة أي وحشة ومن خلال هذه التعريفات اللغوية نستنتج بأن الغربة لها علاقة بالمكان ومغادرته وفراقه.

ثانيا : اصطلاحا : يمكن القول بأن مفهوم (الغربة) قد جرى تداوله من قبل الأدباء بطريقة مختلفة وتتمثل في الشعور الذي يمكن أن يشعر به الإنسان عندما يغادر مسقط رأسه أو موطنه إلى مكان آخر، أو الشعور الذي يراود الفرد حين

[1] آسيا جبار ، بوابة الذكريات ص 153.

[2] الزمخشري، (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر) ، أساس البلاغة . دار صادر ، بيروت 1979، ص 447

[3] ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور) لسان العرب ، ط 2، دار صادر للطباعة والنشر ، دت ، المجلد 1، ص 638

يضطر للانفصال أو النزوح عن مجتمعه وفي المعجم الوسيط المعنى نفسه: غرب الرجل في الأرض، أمعن فيها فسافر سفرا بعيدا، واغترب فلان : نزح عن الوطن[1].

ملخص الكتاب

"لا مكان لي في بيت أبي" أو بوابة الذكريات كما ترجمها محمد يحياتن هي رواية بالفرنسية للكاتبة الجزائرية الراحلة آسيا جبار صدرت عن المركز الثقافي العربي في بيروت سنة 2007 قسمتها إلى ثلاثة أبواب وعدة فصول.

تسرد لنا آسيا جبار سيرة حياتها في كونها عاشت بين عالمين والدها المعلم وأم راقية منحدرة من طبقة برجوازية والتي تكشف لها عالم النساء وسحر الأعراس الجزائرية من خلال أخذها معها إلى الحمامات النسائية، فقد عرفتها على التقاليد والعادات المتوارثة بين النساء الجزائريات، فاسترجعت لنا الكاتبة تفاصيل حياتها اليومية ابتداء من بلوغها عامها الثالث، وحول أيامها في المدرسة والتي كان والدها المدرس العربي الوحيد فيها بين الأجانب. وهي المدرسة التي كرمت فيها لكونها الفتاة العربية الوحيدة المتفوقة في قسمها. وكانت هديتها عبارة عن كتاب يحمل صورة الماريشال بيتان وكان هذا الماريشال يحكم الدول المستعمرة، فانزعج والدها من هذا الأمر، ثم راحت تصف مشهد ركوبها الدراجة الذي كان بمثابة لوثة في صورة الأب المثالية حين رآها والدها عارية الساقين فانزعج كثيرا. إذ أن الجسد عندهم وفي عرفهم يجب أن يكون مخفيا، وكان حبها للروايات الشعبية جعلها تحب القراءة والمطالعة و تغوص فيها في سن مبكرة حيث كان عمرها خمس سنوات حين طالعت أول كتاب، وكان إصرار أمها على تعلم البيانو والرغبة الشديدة في احترافه ولكن محاولاتها لتعلمه باءت بالفشل.

وفي فترة المراهقة انتقلت من الريف الى المدينة واستقرت في العاصمة حيث الحياة أكثر انفتاحا وأن كل شيء حولها أصبح له طابع مدني جديد ابتداء من أثاث منزلهم إلى الموسيقى وصولا إلى الملابس التي تلبسها. ثم راحت تصف كيف تعرفت

[1] صلاح الدين الهواري ، المعجم الوسيط المدرسي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، دط ، دت ، ص 1174

على صديقاتها فتعرفت على فتاة تدعى "ماق" كانت هي أيضا محبة للمطالعة مثلها وهي التي جعلتها تتخطى أمورا ممنوعة في قانون الأب، ثم ذكرت صديقتها "فريدة" التي كانت مقيدة خاصة فيما يتعلق باللباس وكذلك صديقتها " منيرة" التي كانت تصلها بالرجال.

ثم فصلت قصص حبها فكان أول شاب يدخل حياتها يدعى " الصحراوي" وهو من الجنوب ولكن علاقتهما لم تدم كثيرا، أما الشاب الثاني الذي دخل حياتها يدعى "طارق" فكان يترجم لها الأشعار العربية إلى الفرنسية، فكانت تقترب منه شيئا فشيئا فتطورت علاقتهما إلى علاقة حب، فأصبحت تخرج معه متخفية بشخصية الأجانب على أنها ليست فتاة عربية ولكن هذه العلاقة كذلك فشلت مما جعلها تفكر في الانتحار ولكن حتى الانتحار فشلت فيه.

المبحث الأول: غربة اللغة

تعيش آسيا جبار منفيين: فهي منفية في لغة المستعمر باعتبارها لغة الآخر الغريبة عنها المفروضة عليها، ومنفية في لغتها الأم حيث يمنع عليها تعلمها بطريقة أكاديمية وتبقى حبيسة البيوت كأنها جريمة. وهذا ما يحدث نوعا من الانفصام عند الجزائريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية مما يذكرنا بصرخة مالك حداد الشهيرة : "الفرنسية هي منفاي، ولذا قررت أن أصمت"، لكن التعامل مع اللغة اتخذ شكلا مغايرا عند آسيا جبار إذ اقترنت عندها الكتابة بالفرنسية بتحدي السلطة الأبوية والعمل طوال حياتها على تحدي النظام الأبوي، فحولت كتابتها بالفرنسية من منفى لغوي إلى تحرر فكري "لقد استطاعت آسيا جبار كما استطاع غيرها أن تمارس النقد الاجتماعي للمفاهيم الأبوية التي كثيرا ما يجتنبها الذين يكتبون باللغة العربية، بهذا كانت لغتها الفرنسية لغة منفى ولغة تحرر، لقد أبعدتها عن مجتمعها النسوي الجزائري التقليدي"[1].

وقد أصبحت الفرنسية لغة ثقافتها وحتى تفكيرها منذ سن مبكرة جدا فقد كان والدها يحدثها بها لأنها أسهل له في التعبير عن أفكاره ولو مع ابنته الصغيرة جدا "عشية الدخول المدرسي قلت إذن لابنتك ذات الأربع أو الخمس سنوات (بدت لك قد كبرت، وأنا كذلك بالقدر الكافي الذي يجعلني أدرك وأنا في مواجهة نفسي ولاشك) بأنه لا يمكنك التحدث إلا إلي الآن بالفرنسية فأنت تكشف عن ذاتك، آه جزئيا، ذلك الحديث بالعربية هذه العربية التي تجعلك تتلعثم حين يعتريك التأثر لا تجدي نفعا"[2]

تستخدم آسيا جبار لغة مهموسة، حادة ورهيفة كالشفرة، لتحدث جروحا صغيرة في جلد ذاكرتها لتقترب وهي تعيش مسرات الاكتشاف والاعتراف من ذاتها عقلا وجسدا وروحا، أن تعرف كيف حصل الأمر عبر حسها المغموس باستعارات اللغة

[1] حليم بركات ، غربة الكاتب العربي ، ط1 ، دار الساقي بيروت ، 2011، ص 284.

[2] آسيا جبار ، بوابة الذكريات ،، ص 121.

وكناياتها الممزوجة بالشعر المعروض في صور تثير الفضول وتعطي وعودا بمتع خارقة [1].

وقد شكلت اللغة الفرنسية عالما جديدا أو صادما لأن آسيا جبار الفتاة لم تعتد على الشعر الفرنسي، بل اعتادت على تلقي القرآن الكريم ببطء مهيب وخشوع موسوم بعض الشيء وزخم هادئ متأجج عند وقوعه[2] وتنتشر في المدرسة قيم الأخلاق من حيث اللغة والاسم والملامح والوجه، وحتى الماضي المتوتر بين مستعمِر ومستعمَر، تتعلم الفتاة اللغة الفرنسية فيصبح شكلا من أشكال الانحراف عن الماضي الذي كان فيه صوت قوي يرتل بعض آيات القرآن الكريم.

في هذا الفضاء الجديد والمختلف ما يدفع الى إشكالات عميقة في فهم الذات من خلال النزوع إلى تقديس بعضها ومن ذلك اللغة العربية وهذا هو معنى الاختلاف عن الزميلات بالشكل. وحتى الاسم " فاطمة" الذي يعني قيمة مبجلة من وجهة نظر ذويها "أصبت بتأثر جم لما أدركت أن الجمال واحد ومتعدد، وبأن الآية القرآنية لها سجعها و... وأنا استمع، أشعر بأني في القسم وخارجه في الآن نفسه كشيء قد أخذ في الاتساع وتمزق كبير"[3] وتعتبر فاطمة الوحيدة التي فضلت أن تأخذ هذه اللغة بوصفها لغة ثانية ولكن المدرسة رفضت جلب معلمة لغة عربية لها، وهذا يعني أن اللغة العربية باتت منزوعة عنها لقد باتت في فضاء مسلوب، ولهذا يفرض عليها دراسة اللغة الإنجليزية بوصفها لغة ثانية، فهي تتمنى أن تدرس لغة أمها وأجدادها، بما في ذلك الشعر القديم، لغة تطمح في معرفة أسرارها، لذلك فإن أول ما تطلبه من الشاب الذي تحب أن يكتب لها الأشعار باللغة العربية وأن يكتب لها شرحها بالفرنسية.

---

[1] محمد عبد الرحيم، آسيا جبار ما بين إرث التقاليد وحرية الرؤية، أزمة الفرانكوفونية والاغتراب عن اللغة، جريدة القدس العربي، العدد 8011، 2015، مصر، ص12.

[2] رامي أبو شهاب، خطاب الهوية المؤسلبة تمثيلات الأنا في مرايا الأخر، بوابة الذكريات ل آسيا جبار، مجلة اللغة والأدب، العدد 30، ج2، جامعة الجزائر 2، ديسمبر 2018، ص132

[3] آسيا جبار، مجلة اللغة والأدب، العدد 30، ج2، جامعة الجزائر 2، ديسمبر 2018، ص132 المصدر نفسه ص 165.

لقد شكل الترحال بين لغتها الأم العربية ولغة المستعمر الفرنسية صراعا داخليا كما حصل مع معظم الكتاب الفرانكوفونيين، ألقى على وضعها وأدبها وموقعها الثقافي بظلاله الثقيلة، لأن حدة التوتر بين اللغتين يجعل منها ذات هوية ملتبسة فهي لا تستطيع الثبات في أي من الطرفين، والانتقال بينهما هو انتقال يبعث على الريبة والإدانة ولاسيما عند الطرف الذي تنتمي اليه دما وواقعا[1] "هذه اللغة المسماة اللغة الأم أتمنى مع ذلك إشهارها في الخارج كمصباح ! بينما يجب أن أضمها كنشيد محظور، لا اقدر إلا على الهمس بها وترتيلها بالسجود أو بدونه أو حصرها في فضاءات عائلية أو في الفناءات القديمة "[2].

لقد اختارت آسيا جبار اللغة الفرنسية في كتاباتها، إذ لم تستطع أن تحلق بغير هذا الجناح فجربت الكتابة باللغة العربية في مرحلة من حياتها إلا أنها عجزت تماما في التعبير عما يجيش في صدرها فالإبداع غالبا له لغة واحدة، وعاشت في حيرة لأنها لم تلق نفس النجاح وبنفس الكيفية التي تريدها[3]، وهذا من خلال تصريحاتها لصحيفة البيان الإماراتية بأنها حاولت في البداية الكتابة باللغة العربية ولكنها عدلت عن ذلك، لأنها وجدت اللغة العربية لغة جامدة أو شبه ميتة فكانت تأبى الإبداع باللغة العربية، ليس فقط لأنها لم تكن تتقنها بل لاعتبارات أخرى بقيت مجهولة[4].

في المقابل نجد لها مواقف مناقضة تماما تجاه اللغة الفرنسية التي أحبتها واقتنعت بها وتشربت ثقافتها، فاختيار الكتابة بلغة المستعمر التي فرضت عليها منذ الطفولة بحكم نشأتها وتربيتها فهي تصرح بأنه اختيار لا رجعة فيه وبقناعة تامة:" أنا كاتبة امرأة وليس لدي سوى كتابة واحدة أي كتابة فرنسية فأنا أقدم دائما نفسي ككاتبة

---

[1] سعد محمد رحيم، آسيا جبار في السيرة الروائية (بوابة الذكريات) لغة مهموسة وقليل من الحياء الشرقي، مجلة العرب الثقافي، العدد 10761، السنة 40، الأحد 2017/09/24، ص 12

[2] آسيا جبار، بوابة الذكريات ص 399.

[3] محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1996، ص135.

[4] بولفعة خليفة، الهوية والمرأة في أدب آسيا جبار، تفكيك النسق وكسر المحظور، مجلة الأثر، العدد 21، ديسمبر 2014، ص 165.

لا تحمل إلا لغة واحدة هي اللغة الفرنسية "[1] فهي تبدي اعتزازها وفخرها بهذه اللغة الفرنسية وترى بأن عوض أن تكون اللغة الفرنسية لغة الغير ولغة المستعمر فقد كانت بالنسبة لها لغة الأب فقد منحتها الحرية والانفتاح على العالم، فقد كانت تجدها بأنها مكنتها من الهروب من سجن المنزل[2].

إن انحياز آسيا جبار للكتابة باللغة الفرنسية سببه أن الأصل العربي والإسلامي لا يمكن أن يوفر لها مقاما دائما " ولأن اللغة الفرنسية باعتبارها لغة خارج الإسلام يمكنها أن تتكلم بأكثر حيوية عن ظواهر الإسلام وأحداثه مما لو استخدمنا اللغة العربية التي لا يمكنها أن تخون الاسلام للصلة الموجودة بينهما"[3] فهي ترى بأن اللغة العربية لا تمكنها من الحديث بحرية عن الظواهر والمواضيع التي تشغلها. لقد اعتبرت آسيا جبار اللغة الفرنسية بمثابة صمام الأمان :" فعندما منحها الآخر لغته تمكنت بذلك من تحويلها إلى حجاب تتوارى من خلاله من أعين أولئك الذين يعانون نكسة فكرية رهيبة"[4] إنها لغة الآخر الذي يعدها بالاحترام والتقدير، وهذا ما تؤكد عليه حينما تشير بأنها صارت محترمة من قبل مجتمعها حينما كتبت داخل اللغة الفرنسية.

تظهر آسيا جبار إلى جانب الالتزام الذي تظهره بخصوص النساء وذاكرتهن التي ينبغي أن تصان موقفها من لغة الكتابة، على غرار ما فعله كتاب آخرون من جيلها أمثال : كاتب ياسين، محمد ديب، فيتكامل موقف قبول آسيا جبار اللغة الفرنسية مع موقف إشادتها باللغة الأم إذ نلمس حضورا فعليا متكررا لموضوع تلك اللغة بل يحس القارئ بأنه بات موضوع بحث الكاتبة، فتقول معبرة عن حنينها إلى ما جعلته

[1] صياد مليكة، المحظور الديني في الرواية الجزائرية المعاصرة أمين الزاوي وآسيا جبار أنموذجا ، أطروحة تدخل ضمن متطلبات شهادة الدكتوراه ل_م_د تخصص النقد الجزائري المعاصر ، جامعة زيان عاشور ، الجلفة ، ص 241.

[2] محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، ص 139.

[3] حامي خديجة، ازدواجية اللغة والثقافة في روايات آسيا جبار، قراءة في كتاب الأصوات التي تأسرني

[4] نفس المصدر ص 111.

في منزلة حليب الأم :" أبحث كما لو تعلق الأمر بحليب حرمت منه عن فيض الحب للغة أمي"[1] .

يشير الناقد حبيب مونسي إلى حالة الكاتبة آسيا جبار نظرا لمكانتها في الأدب الجزائري والفرانكوفوني من خلال مشكلة اللغة المزمنة إذ يقول :" لقد كانت الكتابة باللغة الفرنسية ولا تزال في الجزائر قضية حساسة جدا نظرا للإرث الكولونيالي الثقيل والقديم الذي تركه الاستعمار في الذاكرة واللسان والذي طرح أمام المثقف الجزائري معضلة ازدواجية اللغة فمن السياسيين من نظر إليها باعتبارها غنيمة حرب يجب التعامل بها ومعها من منطق الاستفادة من مرحلة الانتقالية "[2] " مع ما يشكله هذا من ازدواج في الشخصية يقارب الانفصام ولعل هذه حالة والد آسيا جبار أستاذ اللغة العربية أيضا فتصفه في كتابها قائلة : "ومع ذلك فإن اللغة، لغة الآخرين هي التي تظل درعه حتى وإن قيض له بعد الدراسة الذهاب عند البقال القبائلي ولعب الدومينو -يوم الخميس - والعودة الى استعمال اللغة العربية دون لثغ حرف الراء بالفرنسية وأحيانا بتأتأة سرعان ما يسيطر عليها "[3]

وعلى خلاف هذا فقد كانت تتمتع بالحرية التي فقدها بعضهن بما أن والدها معلم فقد أكملت دراستها بما فيها المدرسة الابتدائية والإعدادية والثانوية وحتى الجامعة بالعاصمة وكان حبها للمطالعة منذ صغرها رافدا لها حيث تقول: "هي ذكرى طفلة عمرها خمس أو ست سنوات تطالع كتابها الأول تلوح أمام ناظري، لقد وصلت مسرعة كالريح إلى هذه الشقة بالقرية وفي يدها رواية استعارتها من المكتبة الفرنسية "[4] فهي لم تجد صعوبة كبيرة في المدرسة التي كانت تدرس اللغة الفرنسية لأن والدها

[1] عزيز نعمان، آسيا جبار مسيرة حثيثة على خطى التاريخ والذاكرة، مجلة الخطاب، العدد 16، جامعة تيزي وزو، د سنة، ص 79

[2] محمد عبد الرحيم، آسيا جبار مابين إرث التقاليد وحرية الرؤية، ص 125

[3] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 110.

[4] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 37.

مدرس على غرار أبناء الفلاحين فقد كان المعلم يحاول جعلهم يتداركون التأخر في اللغة الفرنسية لأن أولياءهم لا يتكلمون سوى اللغة العربية أو البربرية[1] .

و اشتياقها للغة العربية ورغبتها في تعلمها لم يزولا حيث طلبت من الشاب أن يقرأ لها بالعربية بيتا أو بيتين لأحد شعراء الصعاليك من العهد الجاهلي مثل امرؤ القيس ولكنها سرعان ما خجلت من طلبها ظنا منها أنها أحرجته بطلبها، ولكن الشاب لم ينزعج وقرأ لها من كل قصيدة بيتين، فقد اكتشفت بأن "اللغة الفرنسية لا يمكنها الإبانة عن الجناس والإيحاءات والمعاني المختلفة للكلمة ولعبة القوافي العربية الداخلية. أجل اللغة الفرنسية تصبح ميتة حين تعجز عن ترجمة (المعنى) وليس اللب ولا رنين القافية فالمعنى يقدم بشكل تافه، لهذا حولت الترجمة الفرنسية المعلقات إلى بشرة يابسة مع الأسف كم عانيت من هذا الأمر ما جعلني أحسن باليتم"[2] .

لقد كانت تحس باليتم اللغوي لأنها بعيدة عن لغتها الأم وعاجزة عن تعلمها، بعد ذلك طلبت منه أن يرسل إليها النص العربي وكذلك ترجمة البيتين فقالت :"أجل أنا ضعيفة في اللغة العربية الفصحى ! لم أستطع أبدا أن أتعلم لغة الأم كما تمنيت"[3] !فهي تبدي احترامها الكبير لهذه اللغة ولكنها لا تستطيع تعلمها لأن لغتها الفرنسية كانت عائقا أمامها.

كانت تقوم بمراسلة طارق الذي أصبح حبيبها حيث قام الشاب باختيار أبيات للشاعرة المشهورة الخنساء التي بكت موت أخيها صخر، دوّن النصين الأصلي والترجمة بالفرنسية بأن وضع أحدهما قبالة الأخر "أخذت أقرأ الأبيات العربية بقلب يخفق خفقانا، فقررت أن تحفظ عن ظهر قلب هذا الشعر الرثائي"[4] كانت الرسالة الثانية أقصر قرأت الأبيات بالفرنسية أولا، ثم قرأت بصوت عال أبيات الشاعر العربي النابغة الذبياني أحد مؤلفي المعلقات العشر-التسع-المشهورين:

---

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات ، ص 365

[2] المصدر نفسه، ص 363

[3] المصدر نفسه، ص 371

[4] المرجع نفسه ، ص 373

فما الفرات إذا هب الرياح له ترمي أواذيّه العَبَرَين بالزبد

يمده كل واد مترع لجب فيه زكام من الينبوت والخضد

تبوح الكاتبة بضياعها وفراغها الروحي حيث تهرع للاتحاد مع لغتها العربية ودينها الإسلامي تقول:" هرعت هذه المرة كي أعثر على قرآن بالعربية، ورحت أعيد قراءة السورة بصوت عال في لغته الأصلية وأقدر جمالها وأصواتها، كانت كثافة السورة وشاعريتها وكذا إيماني الطفولي قد زودني بالمساعدة التي كنت أبحث عنها تناولتها ككنز أخرج به من الظلمات "[1] فالكاتبة تحب قراءة القرآن باللغة العربية حتى تشعر بانتمائها إلى لغتها الأم.

لم يحدث الاستعمار شرخا لغويا فقط عند الشعوب التي استعمرها، بل أحدث جرحا نفسيا لا يندمل، فاللغة ليست أداة تواصل فقط هي حاملة للفكر والحضارة والثقافة وهي أولا وأخيرا دليل انتماء. كانت آسيا جبار تحس هذا الانفصام في ذاتها إن صح وصفه، وبقي ضعفها في اللغة الأم جرحا غائرا في نفسها تتذكره بحسرة وليس أدل على ذلك من قولها :"أجل أنا ضعيفة في اللغة العربية الفصحى، لم أستطع أبدا أن أتعلم لغة الأم كما تمنيت"[2]. فالطفلة الصغيرة التي كان يحدثها أبوها بالفرنسية في البيت وتحدثها أمها باللغة العربية، هذه الأم التي أصبح حديثها باللغة العربية ملمحا من ملامح شخصيتها عند ابنتها، فهي حين تتذكرها وتصفها تجد أن الخاصية اللغوية هي أهم ما يميزها ويظهر ذلك جليا في قولها واصفة أمها: " الشابة ذات الأربع وعشرين سنة التي لا تحسن بعد قراءة اللغة الفرنسية، وإنما العربية فقط، تتصور مدى العقبات والأعداء التي تقف في وجه صغيرتها في مدرستـ(هم)"[3]

وهذا الانفصام اللغوي فتح عينيها مبكرا على إشكالية لاحظتها بذكاء تتمحور حول رفض الأوروبيين تعلم اللغة العربية مع أنهم أيضا ولدوا في هذا البلد وسكنوا

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات ، ص 360

[2] المصدر نفسه ، ص 372.

[3] المصدر نفسه ، ص 23.

فيه، فهم يتعلمون حتى اللغات الميتة كاللاتينية ويفعلون ذلك بحماسة شديدة لكن يستنكفون من تعلم العربية وهي لغة سكان البلاد الذين يعيشون معهم وهم مضطرون للتعامل معهم، لقد لفتت هذه المفارقة فكر الطفلة آسيا جبار عبرت عنها بمرارة شديدة قائلة :" لكن كيف السبيل إلى فهم كون زميلاتي الأوروبيات رغم ميلادهن في البلد مثلي كن جاهزات لتعلم جميع لغات العالم بما فيها اللغات الموصوفة بالميتة ... بيد أن هذه الفتيات لم يكن يسعين قط إلى فهم اللغة المستعملة خارج المدرسة من قبل تسعة أعشار الساكنة"[1].

هذه المفارقة نبهتها وفي فترة مبكرة على تعامل مهين من قبل الفرنسيين مع الأهالي كما كانوا يسمونهم، فلا اعتبار للغتهم ولا لثقافتهم وهم أي المستعمرون غير معنيين بإدماجهم ولا بالتعرف جديا عليهم إلا بما يخدم مصلحتهم ويعينهم على إحكام السيطرة عليهم، وهي فكرة جديرة بالتأمل أثارتها آسيا جبارة بحاسة الملاحظة الشديدة عندها.

ولعلنا من هذا نستنتج أنها تعلمت الفرنسية وتوفقت فيها إلى درجة أن أصبحت عضوا في الأكاديمية الفرنسية وهي أهم وأكبر هيئة تعنى باللغة الفرنسية وتطويرها في العالم إلى الحد الذي يطلق فيه على أعضائها مجمع الخالدين، قلت تعلمتْ وتفوقتْ لتقول للمستعمر لست أقل منك ولست مواطنة من الدرجة الثانية، واللغة ليست عائقا أمامي وقد نجحت في ذلك.

تبقى مسألة أساسية كيف كان مواطنوها أي الجزائريون ينظرون إليها من ناحية اللغة، ترى آسيا جبار أن المجتمع الذكوري كان يحترم أو يخشى الأوروبيات وذلك أمر طبيعي في تلك الفترة حيث لم تكن الثورة قد اندلعت بعد وكان المستعمر في أوج قوته، لذلك كانت حين تخرج وهي التي تلبس الزي الأوروبي مثل الفرنسيات تحتمي باللغة الفرنسية حتى لا ينظر لها مواطنوها باحتقار، وتعبر عن ذلك بنوع من العتب فتقول : " في الشارع ... يجب علي التزام الصمت أو التحدث بالفرنسية أو الانجليزية

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات، 137.

وحتى بالصينية إن استطعت ولكن لا يجب عليّ أن أظهر هذه اللغة الأولى أمام الملأ، لغة العديد من النساء اللواتي لا يزلن سجينات"[1]

فاللغة العربية وهي امرأة تلبس زيا أوروبيا في الخارج في المجتمع الذكوري للمواطنين الجزائريين تهمة عليها التنصل منها، فهي تجد نفسها " مقنعة باللغة الأجنبية، بينما في الخارج تخونك لغتك الأم، وتشي بك بل يكاد يشار لك بالبنان"[2]

وفي الختام نرى أن آسيا جبار عانت غربة لغوية جعلتها أحيانا تتناقض في موقفها من لغتها الأم فهي تحمل انتماء لا تعبر بلغته، وفي الوقت نفسه تكتب بلغة مستعمر قتل أهلها وحاربهم، وهي ظاهرة يعاني منها جل من كتب باللغة الفرنسية من الجزائريين مما اضطر بعضهم للتخلي عن الكتابة نهائيا.

[1] آسيا جبار ، بوابة الذكريات 400.

[2] المصدر نفسه ، 397.

المبحث الثاني :غربة الانتماء

إن التحدث عن الهوية الجزائرية بعيدا عن التعدد اللغوي هو حديث لا هروب منه، فالفرد الجزائري إلى يومنا هذا لا يملك لغة واضحة أو على الأقل لغة تمكنه من التواصل والتبادل اللغوي، لأن المجتمع الجزائري مرهون تاريخيا بثلاث لغات كما تحصيها آسيا جبار[1]. اللغة الأولى البربرية التي تعتبر حسب تصريحاتها صاحبة حضور في المغرب أكثر من اللغة العربية التي دخلت مع الإسلام والقرآن إلى مناطق الجبل البربرية إذ لا تزال منطقة القبائل تتكلم بهذه اللغة البربرية[2]. واللغة الثانية هي اللغة العربية لغة الكتابة، لغة الكتاب المقدس والصلوات الخمس، لغة الرسول محمد ﷺ في كهفه إنها اللغة العربية. أما اللغة الثالثة فهي اللغة الفرنسية وهي لغة المستعمر الذي غادر الوطن بعد أن مكث فيه لمدة طويلة، رحل المستعمرون وتركوا لغتهم. فهذا الاختلاف اللغوي هو الذي يؤسس الهوية الجزائرية، ولن يتم الإقرار بهذه الهوية إلا بالاعتراف بهذا التنوع اللغوي.

وتوجد لغة رابعة تشير إليها وهي لغة الجسد التي تسميها اللغة الراقصة باعتقادها أنها باستطاعتها أن ترسم ملامح هوية هذا الوطن، فلغة الجسد تعتبر أنها نقطة التقاء اللغات الثلاث. آسيا جبار لا تقدم نفسها كاتبة بلغة معينة، اللغة في بعدها الهوياتي، إن هوية آسيا جبار هي اللاهوية، إن الكاتبة داخل لغة اختارتها لأنها رأت فيها نموذج الاحتجاب الذي يمكنها من الانقلاب على أعين الرقباء.[3]

لقد قامت آسيا جبار بإنصاف اللغة العربية لغتها الأم ولم تنكرها بل حاولت تعلمها والتواصل بها، بخلاف بعض الكتاب الجزائريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية، لكنها لم تنجح في ظل هويتها وشكلها الظاهر كأوروبية، فقد حاولت أن تنتسب لبني جلدتها لكنهم لم يتقبلوها بسبب مظهرها ولم يعطوا لها فرصة لتحس بانتمائها[4] ففي

---

[1] حامي خديجة ازدواجية اللغة والثقافة في روايات آسيا جبار، ص 114.

[2] بولفعة خليفة، الهوية والمرأة في أدب آسيا جبار، تفكيك النسق وكسر المحظور، ص 165.

[3] المرجع السابق، ص 115

[4] محمد حكيمي، الاشكالية الثقافية وازدواجية اللغة في الرواية الجزائرية المعاصرة، ص 250.

الفصل الأول: "شظايا الطفولة" تحاول أن تلملم ما تبقى من ذاكرتها المجروحة، فتبدأ بنسج معالم شخصية أمها فتقول:" أمي البرجوازية ذات الأصول الأندلسية تقطع شوارع العاصمة العتيقة، السيدة التي لا يتجاوز عمرها عشرين سنة بحاجة الى يدي، أنا صاحبة الثلاث سنوات. . . سأستشعر بمجرد أن أكون بالخارج، بأن دوري يكمن في توجيه خطواتها أمام نظرات الذكور"[1].

تتحدث الكاتبة عن أصول أمها الأندلسية وهذا الذي يظهر أصولها كجزائرية والعادات والتقاليد التي تصاحبها، وكذلك تتحدث عن أصل والدها العربي، ومدى تفوقه في عمله، فالكاتبة تحاول أن تثبت حقها في الانتماء للذات الجزائرية فكانت تتجول في أرجاء القصبة وهو مكان ظلت تتجول فيه لتحس بالأمان والانتماء.

تعتبر ثلاثية الدين والمجتمع والرواية مهمة لأن المجتمع لا يمكنه أن يعيش ويستمر دون دين فلابد من وجود علاقات دينية في الرواية تربط بين أفراد مجتمعها. كما أننا نجد عادات وتقاليد علقت وترسخت في الذاكرة الجماعية على أنها من الدين والدين منها براء -فتضع بعض المجتمعات- لاسيما الإسلامية قيودا يمنع خرقها وتؤكد أن عدم احترامها هو وقوع في المحظور الديني فعلى سبيل المثال قضية الطهارة والعفة حيث تختص بها المرأة لا الرجل[2]. وإلى هذا تشير آسيا جبار بقولها :" لم أتفطن إلى أن أمي تستثير إعجاب الرجال بسبب هذا الحايك الحضري الذي يضفي عليها طيفا أبيض ذا طيات بنية، ويجعلها مقنّعة ولكنها ذات هيئة أنيقة، وأنا كما العادة متشبثة بوركها أنا البنت الصغيرة التي لم تصلح كضمانة فحسب بل كحماية لم يعد الأمر يتعلق بمواجهة نظرات الرجال العرب كما في حينا، بل هناك نظرات الأوروبيين الجالسين في شرفات حاناتهم المطلة على الشارع الطويل المؤدي إلى المحطة والذي تعبره هذه العربية المتميزة في كل يوم خميس بعد الظهيرة".[3]

[1] محمد حكيمي، إشكالية ثقافية ازدواجية اللغة في الرواية الجزائرية المعاصرة ، ص 251

[2] بولفعة خليفة، الهوية والمرأة في أدب آسيا جبار، تفكيك النسق وكسر المحظور، ص 165.

[3] آسيا جبار بوابة الذكريات، ص26

لقد كان خلع الحجاب يعتبر علامة تحرر في ظل السلطة الأبوية الصارمة وكان لبسه وسيلة مقاومة للمستعمر الذي حاول تغيير نمط الحياة الجزائرية المحافظة بتأثير في عالم المرأة كخطوة أولى، والتي ستعقبها كما صوروا وأملوا تحولات في عقليات الرجال، وفي هذا الجو الملتبس والمتناقض عاشت آسيا جبار، بتغيير اللباس كانت المرأة تبغي الخفة أي الانعتاق من ثقل السلطة البطريكية حيث يعد الحجب والستر وإخفاء الجسد الأنثوي خلف قماش خشن ثخين وثقيل رمز تلك السلطة، ومع ذلك كانت تريد حماية صورة أبيها أمام الآخرين كي لا يظهر أمامهم مثالا للبربري أو المتخلف فهو معلم قبل كل شيء وهذا لا يليق به[1] فالحجاب يدل على مجتمعها الجزائري المحافظ، ونزعه يدل على التحرر وإتباع الحضارة الغربية.

تعد الدراسة في العاصمة في السنوات الاولى تجربة التشابه والتماثل بالأجنبي والخروج لوحدها والتسكع فكان يُعتقد بأنها أجنبية، ولاسيما أنه كان لا ينبغي استعمال اللغة الحميمية مع شخص عربي، فسرعان ما ينبري بفحصك، فإن الاحترام الذي كان يكنه للأوروبية سيتحول إلى عدوانية سيحملق فيك ولسان حاله يقول:" الفاجرة دون حايك وحتى الشعر غير مخفي " ويعد هذا انتهاكا للقيمة العربية والحكم على الشخص من خلال لغته وعرقه ولكن أيضا (مقنّعة) نعم مقنّعة باللغة الأجنبية ! بينما في الخارج تخونك لغتك الأم وتشي بك بل يكاد يشار إليك بالبنان ! إن ذويك لو تفطنوا إلى أنك تتحدثين مثلهم بالعربية الدارجة لكانوا مفعمين بالحقد ومستعدين لشتمك جراء الحرية التي تتحركين بها في هذه المدينة[2].

عاشت تحررا في المدرسة الداخلية نسبيا فهناك لا تشعر بنفسها معتقلة، وتشترك معها في ذلك الشعور قريناتها من الطالبات العربيات طالما لم يعدن مثلما في البيت " تحت رقابة حارس حريم متغطرس، لكنها تصاب بصعقة حين تحكي لها

[1] سعد محمد رحيم، آسيا جبار في السيرة الروائية (بوابة الذكريات) لغة مهموسة وقليل من الحياء الشرقي، ص12

[2] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 397.

صديقتها الفرنسية جاكلين عن علاقة لها مع فتى خلال عطلتها الصيفية وكيف سمحت له بتقبيلها تقول:" بدت لي حريتها عبارة عن وقاحة وخرق بل مغامرة حقيقية "[1]

في جو المدرسة بتحريض من صديقتها (ماق من أصول إيطالية) تمارس انتهاكات صغيرة لتابوهات عائلتها ومجتمعها، خروقات وإن بدت في حدود المعقول، كانت تجعلها تتذوق الحرية بتذوقها لحلوى (البابا بالروم) وذهابها صباح كل سبت خلسة إلى السينما لمشاهدة أفلام الوسترن، وفي جزء من ذهنها يعتمل شعورها بالحذر من الأب، فهي تخشاه ولا تريده أن يعرف. تقول:" وأنا أسترجع هذه اللحظات، فإن السيناريوهات الجامحة إنما كانت تجري في رأس الفتاة التي كنتها وليس في الشاشة " لترى آسيا جبار نفسها بوضوح أشد تجري عملية انفصال مع الذات انفصام للذات لتوليد قرينة تكاد تكون نسخة منها بواسطة الخيال تماما. والقرينة اسمتها منيرة، هي رفيقة ناصحة منها كانت تستمد الثقة والجرأة وكانت تدلها على ما تعتقد أنه الصواب فهي جريئة وتعدم الخجل، وبهذا تتحول القرينة منيرة إلى حلقة وصل بينها وبين عالم الرجال، فهي (آسيا جبار) لا تمتلك العدة اللازمة للتواصل مع ذلك الفضاء الذكوري الغامض والمهدد والجذاب وكما نعلم أن ثمة مسافة رخوة دائما بين الجنسين في مجتمعات الحرمان مسافة مفخخة بالظنون والفضول والريب[2].

تقول آسيا جبار : " إن التعرف على صديق من أصدقاء أبي في شارع من شوارع العاصمة بينما أنا أمشي إلى جانب هذا الشاب وإن أسرّ بذلك لأبي، وإن استدعاني للامتثال أمام محكمته، فلن اعاود الظهور . . . كيف أخبره أن جسدي بكر (هوس مجتمعنا منذ قرون) وبأني لم أقبل إلا القبلات (التي لم تؤثر في، ولكن الخرق والحظر أثّرا في أيّما تأثير!) كيف أجرؤ حتى على التقدم في هذا الميدان المحظور من قبل العفة أمام الأب؟ وفي كل مرة تأتي خلاصة لتختتم المعضل (إن استدعيت للامتثال أمام محكمة الاب سأنتحر"[3] فالخوف واضح عليها هنا

[1] سعد محمد رحيم ، آسيا جبار في السيرة الروائية (بوابة الذكريات) لغة مهموسة وقليل من الحياء الشرقي ص 12

[2] المصدر نفسه ، ص 12

[3] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 482

من الأب والمجتمع مع معرفة عدم العفة وعدم الشرف، فالتقاليد تمنع خروج البنت مع شاب لا يقربها وكذلك رغبتها في التحرر وأنها المسؤولة الوحيدة عن جسدها.

لقد صورت لنا آسيا جبار لغة الجسد محاولة تحريره من حكم الأعراف والتقاليد فتقول: " قررت دون سابق إنذار (ولتذهب الأعراف المنافقة إلى الجحيم) أن تنتصب بغتة بهذا الفستان الأسود ذي الأزهار الحمراء والبنفسجية كي ترتجل رقصة قديمة متفاخرة أثقلها بعض التردد، ثم بعد تسلل الإيقاع المهتز للطبل في نفسي، رغبت في الالتفاف حول نفسي، سأرقص أمام جميع النساء كما يحصل في سريري وأحيانا في أحلامي"[1]فهي تسعى للتحرر والخروج من هذه الأعراف والتقاليد، فهي تدعو إلى التعبير الجسدي فتقول :" في البدء أرقص ببطء مثل الطاووس، ثم بخفة وحركات مفككة مثل رقصة عالمية لأختمها مع اهتزاز كتفي، وأنا أبسط ذراعيّ العاريين على وشك الاستلقاء على الأرض . . أترنح تحت الميلان الفاتر لكامل جسمي "[2] فهي تشعر بالحرية بهذا الرقص تبدو ثنائية الكتابة والجسد عند آسيا جبار ذات علاقة وثيقة بأعمالها الإبداعية ووسيلة للتعبير عن الهوية، حيث تعتبر الكتابة الصوت الأمثل للكشف عن روح المرأة والتعبير عن جسمها ففيها تتملى نفسها عبر خطوطها ومنحنياتها أكثر من أي صوت آخر[3]. ولهذا فإن الهوية الحقيقية لآسيا جبار يجب أن تلتمس في كتاباتها الإبداعية وليس في الندوات والحوارات الصحفية التي تكون فيها إجابات المبدع أحيانا مجرد ردود فعل حول أسئلة مستفزة أو ظروف عابرة، وبالتالي فهي تعمل على نبذ التوجه الإقصائي المعبر عنه بالهوية القاتلة والهوية عندها ليست إلا انتماء متعددا ضمن مجموع من الانتماءات التي لا يمكن الاكتفاء بواحد منها فهي هوية يمكن إدراكها كمجموع لكل انتماءاتنا أي إن الشعور

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 250

[2] المصدر نفسه ص251

[3] بولفعة خليفة، الهوية والمرأة في أدب آسيا جبار، تفكيك النسق وكسر المحظور،ص 165.

بالانتماء لا يعني العصبية ولا القبلية ولا الهوية القاتلة أو المنغلقة، بل يعني الانفتاح لأن الانتماء إلى الجزء لا يعني الانفصال عن الكل.[1]

تتجلى غربة الانتماء عند آسيا جبار في مظاهر عديدة ابتداء باللغة وقد عرضت لها في المبحث السابق وليس انتهاء بالأكل واللبس وحتى الاسم الشخصي وأسماء المدن.

وقد لخصت هذه الازدواجية في الانتماء بقولها : " أنا صاحبة المظهر الأوروبي دون أن أكون كذلك"[2]. وقد لاحظت آسيا جبار وهي صغيرة هذه المفارقة بعين ثاقبة حين شعرت بالفرق بينها وبين الفرنسيات وكيفية تعامل آبائهن معهن حين يلبسن القصير وكيفية تعامل والدها معها أيضا، فهن يعتبرن ذلك طبيعيا لا يشعرن معه بأي حرج بعكسها ورفيقاتها من العربيات، فتقول : " الآباء الفرنسيون هم أيضا لا يمدون أيديهم لبناتهم، بيد أن هؤلاء البنات لسن خجلات من تنوراتهنّالمغضّنة التي تصل إلى ركبهنّ، أما أنا فالعكس هو الصحيح"[3].

فاللباس هو الواجهة الأولى التي تدل على الانتماء قبل الكلام حتى، أليس أول شيء فعله أتاتورك لتغريب تركيا وفصلها عن تاريخها العثماني هو استبدال الطربوش بالقبعة. وفي حالة آسيا جبار اللبس الأوروبي لا يمثل لها قيدا أو رضوخا للمستعمر بل تحررا فحتى اللباس الرسمي المفروض على الطالبات الذي تتذمر منه زميلاتها الأوربيات تجد نفسها سعيدة فيه لأنه يحررها من الحايك ولباس العربيات من مواطناتها يومذاك، وتصف آسيا جبار ذلك بقولها : " في الداخلية نتخلص نحن البنات أو شبة المراهقات من الوشاح والحايك وكل هذا القناع، بحيث إن المئزر الأزرق المفروض الذي بالنسبة إلى الداخليات الأخريات بزة محتملة بصعوبة فإنه

[1] بولفعة خليفة، الهوية والمرأة في أدب آسيا جبار، تفكيك النسق وكسر المحضور ، ص 166.

[2] آسيا جبار، بوابة الذكريات ص 150.

[3] المصدر نفسه، ص 111.

بالنسبة إلينا نحن المسلمات يظل خلاف ذلك، أمارة واعدة على تخليص جسمنا من الحايك"[1].

هذا التمزق في الانتماء عندها يلاحقها عند كل مفصل من حياتها، ويعود ظهوره ويطفو إلى السطح في كل حالة تحتك بها مع مظهر أوروبي حضاري، فها هي وهي تتعلم العزف على البيانو وهي فعالية موسيقية بعيدة كل البعد عن اللباس وعن التفكير فيما يمثله، ولكن مع هذا تستحضر لباس والدها وكأنها تستكثر على ابنة رجل وامرأة يرتديان اللباس الجزائري التقليدي أن تتعلم العزف على البيانو، ولولا أن اللباس يشكل لها عقدة منذ الطفولة لما استحضرته في هذا الموضع حين تقول : " أين رأيتم بنتا مع أب يرتدي الشاش التركي وأم ملفوفة في حايك صوفي أو حريري تزعم التوفيق في عزف ولو شذرات من المقطوعة المسماة clavier bientempere "[2].

ولا يقتصر هذا الانقسام في مظهر اللباس فقط، فحتى في الأكل يطرح لها إشكالية كبيرة، تسبب لها نوعا من تأنيب الضمير فهي تحب حلوى "البابا روم" وهي عبارة عن نوع من الكاتو يضاف له نوع من الخمر يسمى روم، فحين تناولته اعتبرت نفسها خالفت نواهي الإسلام فتقول :" وبسذاجة الأطفال أضفت بأن رائحة الروم تجتذبني، وهكذا في سن الثالثة عشر رحت أنتهك نواهي القرآن الكريم"[3].

هذه الغربة التي تستشعرها في انتمائها دفعتها دائما إلى عقد مقارنات بينها أو بين أهلها وبين الآخر الذي ليس سوى المستعمر. خاصة وهي كلما كبرت كلما لاحظت الفرق يقوى والاختلاف يتسع، ومع أنها أفضل من بنات جيلها بالنسبة للحرية الممنوحة لها فهي لا تلبس الحايك مثل بعض رفيقاتها وهي تقضي أيام العطلة مع أهلها إلا أن هذا في نظرها غير كافٍ وتعبر عن ذلك بقولها : " بالمقارنة مع مجموعتي كنت أعتبر محظوظة، بينما مع أوروبيات قريتي اللواتي كنّ يقضين

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 182.

[2] المصدر نفسه ص 163.

[3] المصدر نفسه، ص 180.

مثلي أيام الأحد مع أسرهن كانت اختلافاتنا تزداد اتّساعا"[1]، هو اختلاف في اللغة والثقافة والحضارة والدين يدفع إلى المقارنة في كل أمر صغير وكبير أكلا ولبسا وحديثا وطريقة تفكير وإحساس بالدونية والنقص حينا، فالمغلوب مولع بتقليد الغالب كما يقول ابن خلدون، "نحن المسلمات بالداخلية حين نقوم بجرد خيباتنا بمقارنة حياتنا بحياة المراهقات الفرنسيات، فإن هذه الكلمة (مصحوبة) هي التي كانت تصنع الفارق بين وضعنا ووضعهن، ما أن نرمي الحايك إلى الشوك"[2].

وغربة الانتماء هذه دفعتها إلى التناقض في مواقفها فمرات نجدها معتزة كل الاعتزاز بلباس اهلها وتقاليدهم وموسيقاهم، تدافع عنهم وتقف إلى جانبهم ومرات أخرى نشعر أنها منبهرة بالنموذج الفرنسي، وترى أن المرأة الجزائرية الشقراء محظوظة لأنها يمكن أن تتصرف كالأوربيات دون أن تلفت الانتباه فتقول عن صديقتها :" في الفترة الاستعمارية بالفعل كانت كل امرأة أهلية شقراء في مقدورها أن تظهر بمظهر الأوربية لأول وهلة، تظفر بنجاح الخروج في مجموعتها ما يذكي رغبة المستعمَر في أن يشعر على الأقل من حيث المظهر الجسماني أنه ينتمي إلى زمرة الغالب"[3] .

المشكلة التي عانت منها أنها حتى وإن حاولت أن تكون أوربية لن تستطيع مما يذكرنا بالمثل الذي اشتهر في الفترة الاستعمارية " العربي عربي حتى لو كان الكولونيل بوداود". فهي أولا ليست شقراء حتى تغالط الناظر إليها من ناحية الشكل والأهم من ذلك أن اسمها واسم والدها يدلان على هويتها ببساطة، ولقد ذكرت ذلك صراحة في كتابها فقالت :" أنا في هذا القسم الإعدادي أنسى بأنني مختلفة بالنسبة إلى زميلاتي من خلال اسم أبي الطويل واسم فاطمة هذا الذي يبجلني لدى ذويَّ والذي ينقص من شأني هنا في قطر (الآخرين) الذين يتظاهرون باستقبالنا"[4].

---

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 168.

[2] المصدر نفسه، ص 355.

[3] المصدر نفسه، ص 272.

[4] المصدر السابق ص 134.

واللافت للنظر أن العين الثاقبة لآسيا جبار كانت ترى وتحس هذه الغربة حتى في أمور قد لا تثير انتباه الإنسان العادي، ولكن هي بحساسيتها الزائدة كانت تقف عندها وتسجلها ومن ذلك تغيير أسماء المدن من عربية أو أمازيغية إلى فرنسية ففي رحلتها الاسبوعية من البليدة إلى مسقط رأسها لاحظت التالي :" هي غالبا أسماء مدن أوربية حيث انتصرت الجيوش النابوليونية قبل قرن ونصف بينما يخصص لها الأهالي أسماء القبائل المجاورة، في ذلكم الوقت لم يكن يدهشني كون هاته المحطات تحمل اسمين مختلفين... ولكني أعدت التفكير في الأمر بعد سنتين أو ثلاث"[1].

وبقيت هكذا إلى آخر عمرها تعاني من غربة انتمائها رغم قولها في كتابها :" إني كنت في كل الأحوال أشعر أنني أنتمي إلى الجهة الأخرى" أي جهة أهلها ووطنها.

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات ، ص 148.

المبحث الثالث :غربة الوجود

يعيش الإنسان في حياته غربات متعددة ومختلفة، فليست الغربة هي فقط في الانتقال المكاني والبعد عن الوطن كما هو معروف، بل هناك الغربة النفسية والغربة الفكرية والغربة الاجتماعية والغربة الوجودية وهي في أبسط تعريفاتها: شعور المرء بأنه يأتي من حيث لا يدري ويمضي إلى حيث لا يدري، يأتي وحيداً ويمضي وحيدا.

ومن بين أنواع الاغتراب التي تؤثر في نفس الكاتب ما يتعلق بالنواحي الوجودية، وما يرتبط بهذا الوجود من حوله من أمور لا يستطيع الإنسان تفسيرها، خاصة ما كان منها مرتبطاً بنواحي الحياة والموت ولماذا خلقت؟ ومن أنا؟ ولماذا أنا تحديدا؟، وما يتعلق بهذه الإشكالية من مغالطات، فقد ظل الإنسان ينظر إلى الموت على أنه معضلة وجودية لا يمكن معها تفسير ما يجري لمن حوله بوقوع الموت عليهم، فإن ويلات الحروب والدمار الذي تحدث تجعل الإنسان ماثلاً أمام فكرة وجودية لا تفسير لها، فيبقى الكاتب مثلاً متحسساً لهذا الواقع الوجودي، ومتلمساً لنواحي الاغتراب ضمنها.

وهذا النوع من أنواع الاغتراب يحمل الكاتب إلى الإحساس بالغربة نتيجة لبحثه الدؤوب عن الحرية، والابتعاد عن واقع فرض عليه، حتى لو كان هذا المفروض عليه هو الموت نفسه، "فإن البحث عن الحرية والخلاص من مظاهر الاستعباد هي السبيل إلى إظهار ملامح الوجود لدى الكاتب، ومكون مهم من مكونات الاغتراب الأدبي لديه"[1].

والاغترابُ قد يكون اختياريا أو إجباريا/قسريا. وفي كلتا الحالتين، فإن الكاتب المغترب يعيش غربة مُزدوجة، غربة وجودية بقلق ميتافيزيقي، وأخرى مكانية بذاتية الانتماء. هذا القلق والعذاب، هو دون شك، عذاب الانفصال عن الأصل الأصل الثقافي والأصل المكاني.

[1] آمال الحراسيس، ظاهرة الاغتراب في شعر مخضرمي الجاهلية والإسلام، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها/ قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة الأردن 2016، ص 72.

"والأكيد أن لهذا التّمزُّق المزدوج، انعكاسا قويا على المُمارسة الإبداعية، بما يخدُم النص ويُقوّيه ويجعله يتمايز عن الأنا الصّرف، ويحضرُ من ثم، كأنا إبداعي آخر، بأسئلة أكثر كونية فنيا وانطولوجيا"[1].

وككل جزائري عاشت آسيا جبار الغربة بكل تجلياتها وقد عرضنا في المبحثين الأولين غربتها اللغوية وغربة الانتماء عندها وهما مكونان رئيسيان من غربتها الوجودية، ويكفي أن نذكر أن سبب كتابتها ل" بواية الذكريات" هو للتصالح مع محاولتها للانتحار التي أخفتها لعقود طويلة.

أن تولد جزائريا في أرض جزائرية ولكن تفتح عينيك على استعمار يفرض عليك قوانينه ولغته وتقاليده ويمنعك من ممارسة أعرافك وتقاليدك، فمن الطبيعي أن يحدث شرخا في نفسك من الصعب الشفاء منه، فمن المعروف أن الكاتب يحمل عواطف طاغية وشفافية مفرطة وحساسية أكثر من الإنسان العادي. هو غالبا إنسان هش، متقلب المزاج، يعاني من غربة وجودية غالبًا وكل هذا وقود الكتابة. يحترق كي يكتب، يشتعل كي يضيء السماء والأرض، مثالي يحب أن يحمل ضوءا ينير به درب غيره، يرتدي عباءة العرّاف، يقود اليائسين في الأنفاق المظلمة إلى أن يصلوا إلى النور، " لكننا نتفاجأ عندما نعرف أن القرن العشرين شهد انتحار مائة وخمسين شاعرًا، ينتمون إلى ثمانية وأربعين بلدًا وإلى عشرين لغة واعتمدوا في انتحارهم اثنتي عشرة طريقة مثل: إطلاق النار، الغرق، الحبوب المنومة، الارتماء تحت عجلات القطار، الشنق... الذكور بينهم مائة واثنان وعشرون والإناث ثمانٍ وعشرون، جميعهم اختاروا الموت والفرار من هذا الجحيم الأبدي -كما يرونه- لأسباب عديدة ولكن المرجح أن يكون السبب الرئيسي هو عدم انسجام دواخلهم مع الواقع المرّ الذي حولهم وأيضا حساسيتهم الذاهبة إلى تطرف عميق"[2] .

[1] محمد الديهاجي، الاغتراب في يوم الشعر ، جريدة القدس العربي ، لندن، 2017/3/29.

[2] عبد الحميد القائد، وهج الكتابة الشعراء الملعونون، جريدة أخبار الخليج ، البحرين، 2017/4/22

هاجس الموت وهو أكبر موضوع في الاغتراب الوجودي لا يفارق آسيا جبار، ألم تقل يوما في أحد لقاءاتها الصحفية " حينما أكتب، أكتب دائما وكأنني سأموت غدا". في حين أنها كتبت كتابها محل الدراسة بوعي موجع أنها ميتة، ميتة جسديا منذ أكثر من نصف قرن، أي منذ صباح اكتوبر 1953، حينما وهي مراهقة تملكتها رغبة شديدة في الموت، كادت أن تضع نهاية لحياتها بعد مشادة عنيفة مع خطيبها. هي المرة الأولى التي تحكي فيها الكاتبة عن هذه القصة، بصدق يدفع القارئ لتقليب أوراق الكتاب بلهفة ليعرف ماذا حدث.تقول واصفة هذه الحالة ببساطة شديدة : " خطيبي أهانني، وجه لي ملاحظات في غير محلها مهينة، لم أكن متعودة أن أتلقى أوامر لا من أبي ولا من غيره. لذلك عشت التصرف الظالم من خطيبي كأنه اعتداء، لذلك ركضت كالمجنونة في شوارع العاصمة أردت أن أتبدد حيث يلتقي البحر والسماء"[1]

فهذا سبب الانتحار الذي أرادته بشدة يومها فبعد خلاف معه تقف في طريق الترامواي كي تنتحر، "نعم، أنا أتألم لأن سائق الترامواي، في ذلكم الصباح، على شارع سادي كارنو، لم يترك آلته الزاحفة بسرعة تواصل انطلاقتها! حينئذٍ يُسحب جسدي أشلاءً بينما تظل عيناي وحدهما مفتوحتين على سماء الخريف الصافية"[2] .

"ولكن أرغبت بالموت حقاً؟ أتراها جادة، وهي على أعتاب السبعين، تتمنى لو يكون السائق مضى قدماً وسحقها؟ وإذن، ماذا كانت تعني محاولتها للانتحار؟ أكانت محض تمثيل لاستمالة الحبيب/الخطيب وجعله يشعر بالذنب، ولكي يعود إليها؟ أكانت حقاً تحمل بذرة الانتحار في دخيلتها خوفاً قابعاً فيها، من سلطة الأب، وردّ فعله المحتمل فيما إذا عرف بعلاقتها الغرامية؟ هل ذهبت إلى سكّة الترامواي وهي تدرك بوضوح ماذا تفعل؟ أم كانت تحت تأثير قوة غير واعية لا سيطرة لها عليها؟"[3]

[1] لقاء مترجم مع آسيا جبار، جريدة jeune afrique ، باريس، 2008/3/13.

[2] آسيا جبار، بوابة الذكريات 364.

[3] سعد محمد رحيم ، آسيا جبار لغة مهموسة وقليل من الحياء الشرقي2017/9/24.

يتحوّل الهمّ الذاتي، وحالة تنعتها هي بالتافهة، ومصير تمنّته ولم يتقرر مثلما حلمت وخططت إلى قضية أكبر، إلى تساؤل يلخِّص محنة الأنثى في البيت الشرقي والمجتمع الشرقي " لماذا، لماذا يجب عليّ أنا أن أجدني وجميع الأُخريات بلا حيّز في (منزل أبي)؟"[1] .

ولكن بعد مرور كل هذه السنوات أكثر من نصف قرن والنظر إلى محاولة الانتحار بعقل بارد وبنظرة موضوعية يحق لنا طرح السؤال التالي هل ندمت آسيا جبار على إقدامها على هاته الخطوة التي لحسن الحظ لم تكلل بالنجاح؟ هل رأت فيها شيئا من طيش الصبا وجنون المراهقة ؟ وهي التي كتبت هذا الكتاب للتخلص من آثارها، الحقيقة أن كل ذلك لم يحصل إذ نجد في كتابها نصا صريحا تتمنى فيه لو أن تلك المحاولة نجحت ولم ينقذها السائق، هو اعتراف واضح أن مرور الزمن لم يخفف من غربتها الوجودية، تقول في لحظة صدق مع الذات، وأنقل النص كاملا لدلالته الكبيرة على التأزم الوجودي الذي لازم آسيا جبار طيلة حياتها :

" أنا التي أكتب اليوم، وأستعيد بالتفصيل وعن كثب، الثواني والدقائق لتلك التي جرت ذلك الصباح، من أعلى درج شارع الواجهة البحرية، وارتمت ثم تمددت على السكة أمام الترامواي الزاحف بسرعة، أجل أنا التي أعيد بناء بواسطة كلمات اللغة الفرنسية، هذه الثواني وهذه الدقائق لثقب فاغر (فاغر بين ماذا وماذا؟ بين حب الأب وحب سارق العروس الذي يقترب) أنا اليوم قبالة هذا الثقب الفاغر وهذه المأساة المزيفة وخطر الموت الذي رقص ورحل رقصة باليه جنائزية، أنا الممدودة على الأرض والمنقولة بعد ذلك إلى غاية سيارة الإسعاف، أشهد ببرودة وبشكل مبرم بأنه كان من الأفضل بالنسبة إلي ألا يكون ذراع السائق آمنا وبأنه كان من الأفضل أن يسحقني دون أن يستشعر وخز الضمير وأن يغرز هذا الجسد في الأرض، أو أن

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات ص 366.

يتركه يطير غبارا كما كنت أرغب بينما كنت منطلقة بجنون وجموح كي أذوب في خليج الجزائر المجيد"[1].

محاولة الانتحار كانت أكبر تجلٍّ للغربة الوجودية لديها، والارتباط بين الانتحار والاغتراب تحدث عنه كثير من الفلاسفة الغربيين ودرسوا أسبابه، وليست آسيا جبار استثناء في هذا الأمر، ومع هذا فالاغتراب الوجودي بدأ مبكرا عندها يمكن أن نرجعه إلى أول مواجهة مباشرة مع الموت فقد حدث ذلك في الثالثة أو الرابعة من عمرها وروته بتفاصيله الدقيقة بعد أكثر من نصف قرن. توفيت جدتها وعرفت يومها معنى الفقد وأحسته وتفاعلت معه، تصف ذلك فتقول :"في شارع شرشال هذه أجري وأجري باكية وعمري لا يتعدى ثلاث سنوات دون شك. أصدر ما يشبه الصراخ وإن جزئيا، ولئن كنت أنقاد لإيقاع دموعي التي لا تأبى الانبثاق والتي تكشط حلقي، ولئن كنت أتوغل بعيدا، فإن أجنحة هائلة ودافئة من الوجع هي التي تحملني"[2] .

تصف أحاسيسها بدقة وهي في هذا العمر الصغير دلالة على ما تركه الموت من صدمة وجودية فيها، تتحدث عن الوجع وكأنها شخص كبير يدرك معنى الفقد ويعرف آثار الحرمان. بل تفلسف هذا الفقد وتشرحه بأحاسيس البنت يومها فتقول :" أركض وأبكي وأحس وكأن قلبي سينفجر في صدري النحيف، أتبع في الخارج طفلة ذات ثلاث سنوات قالت لي بأن جدتي من أبي قد توفيت لا أظن أنني رأيت جسدها ولا أعرف ما إذا كانت لا تزال نائمة أو إذا وافتها المنية أركض لأنني لا أرغب في تصديق هذا الانفصال وهذا التخلي (ماما قد تخلت عني) وذهبت أو تم اختطافها عنوة. ماذا يعني توفيت؟ ألا يعني ذلك بأنني لن أعني بالنسبة إليها أي شيء؟ وبأنني لن أقوى على اجتياز الليل بين أحضانها؟ وأن لا أحد سيحبني"[3] .

هكذا فهمت الصغيرة الموت إنه تخل ولا أحد سيحبها إنه أول إحساس بالغربة الوجودية بدأ معها مبكرا وظل محفورا فيها. حتى موت أبيها فيما بعد لم يأخذ بعدا

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ص 488.

[2] المصدر نفسه ص 27.

[3] المصدر نفسه، ص 28.

تراجيديا كهذه الصدمة الأولى وكيفية تلقيها. حفظت تفاصيل التفاصيل كيف ركضت دون انقطاع وكيف لم تقف الدموع من عينيها إلى درجة أنها لم تبك في بقية حياتها مثل تلك اللحظة، تشرح ذلك بقولها :" صحيح أنني سأواصل طفولتي في هذا المنزل وهذه العائلة فيما بعد. بيد أنني لن أذرف مثل هذا السيل من الدموع كلا ! لن أترك قلبي يهتز كما في السابق ولن يتسرب إليه هذا اليأس الحاد! لن أعاود البكاء فيما أظن سأنظر إلى الآخرين بوضوح جم من بعيد، تحدوني رغبة وحيدة خفية، قوامها عدم نسيان أي شيء"[1].

وخارج هذين الموضوعين المحوريين في حياتها أي الانتحار والموت، نجد في كتابها محطات كثيرة تدلنا على غربتها الوجودية، هذا القلق الملازم لها والضياع الذي يصاحبها أحيانا فيحول بينها وبين ما تريد، وهي معذورة في ذلك فلم تعش حياة طبيعية، تبعثرت روحها بين بلدين ولغتين وحضارتين، وحتى على المستوى الشخصي عاشت حياة متقلبة فقد تعرضت للعنف الزوجي من زوجها الأول ثم تطلقت وتزوجت ثانية، ولم ترزق بأولاد فتبنت طفلا وبنتا وتركت الولد الذي تبنته بعد عشر سنوات بل اتهمته بالسرقة ودخل السجن، حياة قلقة متوترة رغم ما فيها من مجد أدبي.

بدأ هذا القلق باكرا فهي قد تحدثت عنه في كتابها في فترة مراهقتها بقولها : "ترى هل أنا التائهة الحقيقية، الضائعة في المدينة التي لم ترغب منذ زمن بعيد في التساؤل: (لماذا فضلت ذات يوم أن أصغي إلى المجهول؟) هل أصبحت فجأة ذلك الشخص الذي أخطأ الباب في مدينة أجنبية؟ هل سأصبح تائهة إلى الأبد؟"[2]

القارئ لبوابة الذكريات يعثر على مقاطع كثيرة تتحدث فيها بطريقة مواربة عن غربتها الوجودية، الكتاب في حد ذاته صرخة ضد النظام الأبوي والتقاليد المتآكلة والتمييز العنصري الاستعماري والاضطهاد النسوي، وهي حين تحس بالعجز أمام كل هذه التحديات وتستشعر الضعف بوجه هذه العقبات، تخرج منها صرخات وجودية

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات ، ص 30.

[2] المصدر نفسه، ص 447.

تشعرنا حينا بتحديها ولكن تشعرنا في أغلب الأحيان بعجزها وإحباطها. بل هناك مقطع في كتابها تتعجب فيه كيف استطاعت أن تتجاوز هذه العقبات وتعبر هذه الخيبات، والغريب أنها ترجع ذلك إلى لامبالاة ساعدتها على كل ذلك، ولا تحمّل أي فرد آخر سبب ذلك بل ترجعه إلى نفسها في محاولة لجلد الذات عرفتها الفلسفة الوجودية كثيرا مع تأكيد أنه رغم كل شيء استطاعت النجاة فتقول: "كيف استطعت أن أواصل طريقي الطويلة؟ اللهم إلا إذا كان نوع من التحجر قد جعلني لا أبالي بالزمن والتآكل والخيبة، كيف واصلت العيش رغم هذه العتمة المنعقدة في، علما بأني لم أؤذ سوى نفسي والجزء الأنثوي من قلبي"[1].

وإذا كان فيلسوف الوجودية سارتر قال مرة :"لا شيء مهم مثل وجود الإنسان" فآسيا جبار قاتلت لإثبات هذه المقولة، فهي أولا امرأة وجهودها في القضايا النسوية معروفة ومشهورة ولا نبالغ إذا قلنا أن كل ما كتبت ليس سوى تنويع على قضيتها المركزية هذه، سواء في مذكراتها أو رواياتها أو أفلامها الوثائقية.

وهي من ناحية ثانية جزائرية ولدت في الفترة الاستعمارية حيث كان المواطن الجزائري مواطنا من الدرجة الثانية لا حقوق له ويتعرض لطمس ممنهج للغته ولدينه ولتقاليده، حتى وإن تشبه بالفرنسيين وحاول الاندماج معهم. وقد تركت هذه المعاملة جرحا غائرا في نفس الطفلة والمراهقة التي كانتها آسيا جبار يومئذ، تقول بمرارة شديدة ضاربة عصفورين بحجر فهي تنتقد السلطة الأبوية من جهة وتنتقد الاحتقار الفرنسي لكل ما هو جزائري من جهة أخرى :" هذه الرقابة من شأنها أن تظهر أبي كبربري أو متزمت متخلف. تصوروا الأستاذة تهزأ بأبي: "رغم كونه معلما " كانت ستضيف بطريقة لاذعة، إنه أمر لا أستطيع تحمله"[2].

تشعر آسيا جبار بالخيبة جراء استمرار استغلاق لغز الوجود عندها وهي المتبعثرة بين ضفتين، كما تشعر بالخيبة من عدم اتضاح هوية الانسان في دوامة

[1] آسيا جبار، بوابة الذكريات ، ص 444.

[2] المصدر نفسه، ص 340.

الوجود التي لا تكف عن الدوران. ويمتلك هذا التساؤل الكثير من المشروعية. لأنه إذا كانت هذه (الأسئلة) على هذا القدر من القدم والأهمية، فلماذا لم يحسمها الفكر الإنساني على مدى تاريخه الطويل.

وقد تعمّدت الكاتبة انتقاء مفردتين للتعبير عن هذه الحيرة، إحداهما الخيبة والثانية العتمة كما رأينا في النص السابق. وهما مفردتان حافلتان بالقلق والتمرد والاستحالات الروحية والفكرية المتصارعة، وهو مؤشر رؤية الكاتبة لعدم وصول كل منهما إلى مشارف الحقيقة، وإطفاء التهاب قلق النفس الانسانية، مستخدمة عبارة تمردية حتى في عنوان مذكراتها (لا مكان في بيت أبي) التي للأسف حولتها الترجمة العربية للعنوان (بوابة الذكريات) إلى جملة عادية بدون أي مدلول قوي أو شحنة عاطفية.

يظهر لنا حين ننهي كتابها "أن حياتنا (ليست) سوى - حلم- قصير في سحابة الأزل. وهنا يتجسد مغزى ظاهرتين وصمتا حياة البشرية [العجز، التسليم]. ويتجسدان في ظاهرة (الدين) ومحاولته تلخيص نظام الوجود وربطه بالحياة الأرضية وفق مبدأ تراتبية منسجمة مع قواعد الحكم والتسلط"[1].

ورغم عدم حضور الدين بشكل مباشر في مذكراتها إلا أنه يطل من بين السطور، ولا أتحدث هنا عن النصوص التي استعملتها في كتاباتها لغاية بحثية كاستشهادها بكتابات الطبري وغيره، بل عن رجوعها إلى الدين كضرورة روحية تخفف من قلقها، وتساعدها على تجاوز غربتها الوجودية. و يجدر بنا هنا أن نستحضر ما كتبه الباحث عبد الجبار الرفاعي حول ضرورة الدين في التوازن النفسي حين يقول:

"إن الدينَ حاجةٌ وجوديةٌ لكينونة الإنسان بوصفه إنسانًا، ولا تختفي هذه الحاجةُ العميقةُ مع تطور الوعي البشري، وما ينجزه الإنسانُ من مكاسب كبيرة في المعارف

[1] وديع العبيدي، إشكالية الخروج من الاغتراب الذاتي إلى الاغتراب الوجودي، جريدة الحوار المتمدن، العراق 2008/02/02.

والعلوم والتكنولوجيا، وحتى لو غاب أكثرُ أشكال تعبيراتها في المجتمعات الحديثة فإنها لا تغيب كلّيًّا، بل تعلن عن حضورها أحيانًا على شكل ظواهر لا عقلانية وممارسات غرائبية تنبعث بصورة لا واعية في معتقدات بعض الناس وسلوكهم"[1].

تذكر في مكاشفة واضحة في مذكراتها لحظة لجوئها إلى القرآن الكريم في ساعة من ساعات الظمأ الروحي، وتكتب عن ذلك بروحانية عالية فتقول : "خلال زواجي الثاني فتحت القرآن يوما على صفحة ما، ذلك أني كنت في أوج القلق، قبل أن اتخذ قرارا كنت أبحث داخليا عن "رسالة" وآية وكلام موجه لي، أي إشارة. تقول سورة النجم : {وَأَن لَّيْسَ لِلإنسَانِ إلاَّ مَا سَعَى} في الوقت الذي كنت أتوسل المساعدة في صمت ... كنت آنذاك في الحافلة، بعد العودة إلى المنزل متأثرة أو مستنفرة من قبل هذه "الرسالة" هرعت هذه المرة كي أعثر على قرآن بالعربية ورحت أعيد قراءة السورة بصوت عال في لغته الأصلية وأقدر جمالها وأصواتها"[2].

فهي كانت تخفف من غربتها الوجودية بالرجوع إلى الدين والقرآن تحديدا تخفف به حدة القلق والضياع، ورغم ما عرف عنها من علمانيتها هي لا تخفي هذا بل تذكره بصريح العبارة وتذكر أثر هذا العلاج القرآني فيها وتسميه إيمانها الطفولي أو كما يصطلح أن يسمى إيمان الفطرة، فتقول : "أجل في هذا اليوم ... كانت كثافة السورة وشاعريتها وكذا إيماني الطفولي قد زودتني بالمساعدة التي كنت أبحث عنها. تناولتها كنور كي أخرج من الظلمات"[3].

وفي الختام نقول إن آسيا جبار عانت من غربة وجودية حادة، بلغت ذروتها في محاولتها الفاشلة للانتحار، رغم أنها تركت فيها ندوبا كتمتها أكثر من خمسين سنة، ولم تشف منها إلا حينما أفرغتها على الورق في مذكراتها هذه، كما لا ننسى دور إيمانها الذي سبق أن تحدثنا عنه في مساعدتها على تجاوز المأزق الوجودي.

---

[1] عبد الجبار الرفاعي، الدين والاغتراب الميتافيزيقي، دار التنوير، بيروت ، 2018 ص 123.

[2] آسيا جبار، بوابة الذكريات ص 472.

[3] المصدر نفسه ، ص 474.

خاتــمة

لكل بداية نهاية وفي الأخير توصلنا إلى العديد من النتائج منها:

الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية متنوع في موضوعاته وقد شاع في الساحة الأدبية وتطور تطورا كبيرا.

لقد أدى ظهور الغربة المكانية إلى عدة عوامل منها سياسية واقتصادية واجتماعية.

لقد قدم لنا أدباء الغربة أدبا راقيا حاولوا به تحسين وضعهم فكتاباتهم كانت ذاتية تسعى إلى التنفيس عن النفس.

اعتبار الكتابة النسوية كتابة رمزية وهذا ما أكسب اللغة جمالا وشفافية فكانت الرواية الملجأ الأول من أجل الدفاع عن حقوقها.

أما آسيا جبار في روايتها بوابة الذكريات نجدها قد استغلتها واتخذتها وسيلة للإفصاح عن ذكرياتها وأسرارها التي لم تبح بها قط وتحاول تحريرها من أوجاع الماضي فراحت تعيد كتابة تاريخها الشخصي من جديد، وتمثيلها للأزمة اللغوية والثقافية والهوياتية التي كان عليها المجتمع الجزائري في ذلك الوقت.

وجدت آسيا جبّار نفسها في مواجهة لغة المستعمر، فكانت روايتها بوابة الذكريات سبيلها لمحادثة هذا الطرف في ظلّ الظروف التي فرضها.

آسيا جبار من خلال روايتها بوابة الذكريات أثبتت أحقيّتها في الانتماء الذات الجزائريّة.

رواية بوابّة الذكريات كانت وسيلة لإفصاح آسيا جبّار عن شعورها بالخيبة من جرّاء استمرار استغلاق لغز الوجود عندها.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر:

1- آسيا جبار، بوابة الذكريات، ترجمة محمد يحياتن، منشورات سيديا، 2007.

قائمة الكتب:

2- تزيفتان تودوروف، نقد النقد،تر: سامي سويدان ،منشورات مركز الانتماء القومي، بيروت، لبنان، 1986.
3- أحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، دط، دارالساحل، الجزائر، 2013.
4- أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه.
5- أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية.
6- بعلى حنفاوي، أثر الأدب الأمريكي في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دط، دارالعرب للنشر ،دسنة.
7- بن سمينة محمد، في الأدب الجزائري الحديث، النهضة الأدبية الحديثة، مؤثراتها، بدايتها، مراحلها، مطبعة الكاهنة الجزائر 2003.
8- تيري إيجلتون، الماركسية والأدب ،تر: جابر عصفور، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء المغرب، 1986.
9- حامي خديجة، ازدواجية اللغة والثقافة في روايات آسيا جبار، قراءة في كتاب الأصوات التي تأسرني.
10- حليم بركات،غربة الكاتب العربي، ط1 ،دارالساقي بيروت، 2011.
10- سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، دط، المكتبة العصرية بيروت، دسنة.
عبد الجبار الرفاعي، الدين والاغتراب الميتافيزيقي، دار التنوير، بيروت، 2018.
10- عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث،تر: فيص لعباس، دار الحداثة بيروت، ط2، 1982.

11- عبد الله الركيبي، الفرانكوفونية مشرقا ومغربا، دار الرواد للنشر والتوزيع، بيروت، 1992.

12- عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر 2009.

13- غولدمان لوسيان، تاريخ الأدب والفلسفة،تر: نادر زكرياء، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع،ط 1 ،1981.

14- محمد حكيمي، الاشكالية الثقافية وازدواجية اللغة في الرواية الجزائرية المعاصرة.

15- محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1996.

16- واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ط1 المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

17- يوسف نسيب، مولود فرعون حياته وأعماله ،تر: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1991.

قائمة القواميس:

18- ابن منظور (ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور) لسان العرب، ط 2، دار صادر للطباعة والنشر.

19- الزمخشري، (جارالله أبوالقاسم محمود بن عمر) ،أساس البلاغة . دار صادر، بيروت 1979.

الأطروحات:

20- آمال الحراسيس، ظاهرة الاغتراب في شعر مخضرمي الجاهلية والإسلام، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها/ قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة الأردن 2016.

21- صياد مليكة، المحظور الدينيفي الرواية الجزائرية المعاصرة أمين الزاوي وآسيا جبار أنموذجا، أطروحة تدخل ضمن متطلبات شهادة الدكتوراه ل_م_د تخصص النقد الجزائري المعاصر، جامعة زيان عاشور، الجلفة.

22- قصابي صليحة، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من أواخر الثمانينات إلى غاية 2003، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم، تخصص أدب عربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، سنة 2017-2018.

قائمة المعاجم:

23- صلاح الدين الهواري، المعجم الوسيط المدرسي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دط،دت.

قائمة المجلات:

24- آسيا جبار،مجلة اللغة والادب، العدد 30، ج2، جامعة الجزائر 2، ديسمبر 2018.

25- بولفعة خليفة، الهوية والمرأة في أدب آسيا جبار، تفكيك النسق وكسر المحظور، مجلة الأثر،العدد 21،ديسمبر 2014.

26- حكيمة سبيعي، هوية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، مجلة العلوم الانسانية،العدد 35/34،جامعة محمد خيضر بسكرة،مارس 2014.

27- رامي أبو شهاب، خطاب الهوية المؤسلبة تمثيلات الأنا في مرايا الأخر، بوابة الذكريات لآسيا جبار، مجلة اللغة والأدب، العدد 30، ج2، جامعة الجزائر 2.

28- سعد محمد رحيم،آسيا جبارفي السيرة الروائية (بوابة الذكريات) لغة مهموسة وقليل من الحياء الشرقي، مجلة العرب الثقافي، العدد 10761، السنة 40، الأحد 24/09/2017.

29- عزيز نعمان، آسيا جبار مسيرة حثيثة على خطىالتاريخ والذاكرة، مجلة الخطاب، العدد 16، جامعة تيزي وزو،دسنة.

30- نوال بن صالح، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير (صراع اللغة والهوية)، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر،بسكرة.

قائمة الجرائد:

31- عبد الحميد القائد، وهج الكتابة الشعراء الملعونون، جريدة أخبار الخليج، البحرين، 2017/4/22.

32- محمد الديهاجي، الاغتراب في يوم الشعر،جريدة القدس العربي، لندن، 2017/3/29.

33- محمد عبد الرحيم، آسيا جبار مابين إرث التقاليد وحرية الرؤية، أزمة الفرانكوفونية والاغتراب عن اللغة، جريدة القدس العربي، العدد 8011، 2015،مصر.

34- وديع العبيدي، إشكالية الخروج من الاغتراب الذاتي إلى الاغتراب الوجودي، جريدة الحوار المتمدن، العراق 2008/02/02.

اللقاءات:

35- لقاء مترجم مع آسيا جبار، جريدة jeune afrique ،باريس، 2008/3/13.

المراجع بالفرنسية:

36- Djean De jeaux" situation de la litterature maghrébine de la langue francaise" Alger ,ed ,opu 1982.

37- Fadhila yahiaoui "roman et societé coloniale" ed ،ENAl ، Gamalger ,Bruxelles ،1985 ،p 17.

الفهرس

المقدمة	أ - ب
المدخل	4
الفصل الأول: الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية من النشأة إلى إشكالية الهوية	**13**
المبحث الأول: الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية النشأة والتطور	13
المبحث الثاني: الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية وإشكالية الهوية	22
المبحث الثالث: الكتابة باللغة الفرنسية وأشهر الأعلام	30
الفصل الثاني: غربة الكتابة في بوابة الذكريات لآسيا جبار	36
تمهيد	36
المبحث الأول: غربة اللغة	40
المبحث الثاني: غربة الانتماء	49
المبحث الثالث: غربة الوجود	58
الخاتـمة	68
الملحق	
قائمة المصادر والمراجع	